ابراهيم المصري

صوت الجيل

١٩٣٤

ملتزمة نشره

مكتبة سابا ومطبعتها

٤٩ شارع الفجالة بمصر

كلمة الناشر

الى القراء الكرام

أقدمنا خدمة للنهضة الادبية فى مصر على طبع كتاب «الفكر والعالم» للاستاذ ابراهيم المصرى فكافأنا الجمهور بالاقبال عليه حتى أوشكت أن تنفد النسخ المعدودة الباقية منه

ولذلك تشجعنا على طبع هذا الكتاب وكلنا أمل فى أن نلقى من جمهورنا الكريم نفس العطف ونفس المؤازرة كى نستطيع المضى فى طريقنا وطبع طائفة أخرى من أعمال كبار كتابنا

خليل سابا

صاحب مكتبة سابا بالفجالة

تقدمة

هـذه مجموعة من الدراسـات والمقالات أعتقد أن فيها طائفة من الخواطر والافـكار تعبر عن بعض نزعات الجيل الحاضر سواء أفى مصر أم فى الخارج . ولهذا أرى واجبا على أن أقدمها لاخوانى من شباب هذا الجيل عسى أن يلمحوا فيها قبساً من ذلك النور المنبعث منهم والذى يجب أن نستضىء به جميعا فى طريقنا الجديد نحو الحياة المثلى

ابراهيم المصرى

للمؤلف

الادب الحى

الادب الحديث

الفكر والعالم

بيني وبين نفسي

يلوح لى أن أولى الدراسات وأحقها بالعناية وأخلقها بالاهتمام دراسة الإنسان

أن أبحث عن نفسى وأن أعثر فى النهاية عليها . هذا مايجب أن أتوخاه من جهودى الروحية المتواصلة ومايجب أن يتوخاه كل فرد غيرى . إذ فى ضميرى الشخصى يتكون ضمير العالم . ومن فكرتى الشاردة البسيطة تنبثق الفكرة الكلية الكاملة .

على أنه من المستحيل علىَّ أن أنمى قوى ذاتى بدون حرية .

إن الحرية هى الحافز الأكبر لكل حركة من حركات الحياة ولكل لمعة من لمعات القلب والعقل

إنها تقصينى فى الظاهر عن الناس وتسمح لى بأن أظل « أنا » وتبقى فى نفسى على ذلك التباين والتمايز والتناقض والاستقلال الشائع فى فكرى وإحساسى والذى أتوهمه شراً بينما هو الخير كله وفقراً بينما هو الغنى بعينه !

لاتتفق الحرية والخضوع للعرف السائد ولاتقبل الحرية الفضائل والرذائل المصطلح عليها

ولكن هل الحرية هى الفوضى ؟ . وهل يجب على المخلوق الحر أن يهزأ ويستخف بالفضائل والرذائل جميعا ؟ . لا أعتقد ذلك البتة

قد تكون الفضائل والرذائل أشياء نسبية ولكن فى وسعى أن أهبها

قدرة الخير والشر بحسب الوجهة التى أوجهها نحوها واستناداً إلى معرفتى بها ورقابتى الدائمة عليها وحرصى على تحليلها وإدراكها

ولن أعرف حقيقة الفضائل والرذائل ، وجوهر الخير والشر حتى أسود نفسى !

ينبغى أن أنظم قبل كل شىء ميولى وأهوائى وأستشف بواطنها وأتغلغل فى ثناياها وأظل ألاحقها بالتأمل والملاحظة والتجربة والتفكير حتى أهتك الستر عنها وأستوضح خفاياها ، ومتى استطعت اخضاعها ووفقت إلى تنظيمها أدركت سر جميع الميول والأهواء وتبوأت عرش العقل وتسنمت ذروة الحكمة وانكشف أمام بصرى المشهد الانسانى برمته !

ولكن لاسبيل الى هذا التفوق بغير الارادة ،

ولابد للارادة كى تعمل من عقل متوقد نابه يقظ .

غير أن العقل عدو الارادة ، العقل درجات ونسب . مد وجزر . إقدام وإحجام . أما الارادة فوحدة حية . قوة دائبة العمل قد يشلها العقل المتردد إن هى تشبثت به أبدا . وقد يسخر منها فى النهاية ويذلها ويفرض عليها ضربا من الحكمة النفعية الشاحبة الصفراء . وكثيراً ماتكون حكمة العقل عجزاً وأنانية ونفاقا وجبنا !

إذن فلتنطلق إرادتى ولو بأيسر حظ من العقل ؛ إذ المهم أن تعيش وتنمو وتنتج لاأن تستطيب التلكؤ والتباطؤ والتردد ولو صحبة عقل عبقرى !

ولكى تحيا هذه الارادة وتزهر يجب أن أستمد لها القوة من عنصرها نفسه أى من الحركة

يجب أن أروض شخصى وأروضها على تمارين يومية محددة . وبرامج دورية معينة . وخطط مرسومة واضحة . وطرائق فى العمل والتفكير ثابتة . وغايات فى الحياة مرصودة فى لوح الأمل العريض !

ولتحقيق هـذا يجب أن أحارب ميولى وأهوائى لأفهمها وأ كبحها .
يجب أن أحارب نفسى يجب ألا تـكون هنـاك حرب إلا ضـد نفسى .
ويجب ألا أخشى غير نفسى ويجب ألا أفجر القوة إلا من نفسى . ويجب ألا أحس حقائق الـكون إلا عن طريق معرفتى نفسى !

لا وزن لأ ية حقيقة تجيئنى من الخارج . فاذا لم أ كتشفها بعد جهد وصبر طويل كان وجودها وعدمه سواء .

إن عقيدتى التى لا أرتاب فيها هى أن المعرفة تجربة .

ولقد اتفق لى مراراً عدة أن اتصلت بقوم طالما تغنوا بما فى التوا كل من راحة وصفاء . وطالما أغرونى بالقاء السلاح وطرح عدة الجلاد والـكف عن الحرب واستقبال الحيـاة . حلوها ومرها ، شرها وخيرها . بابتسامة العبث والترفع والتهكم والازدراء

قالوا لى : ان السعادة فى قتل الأمل . وإخماد الرغبات . وطرد شـبح المستقبل . وان لاهدوء مع الطمع . ولا سكون مع المعرفة . ولا استقرار مع الارادة . ولا فائدة من السعى والألم والجهاد

وأوشكت ان أعنو لهم واطمئن لفلسفة زعموا أنها روحية وأنهـا شرقية وأن فيها الخلاص

ثم تلفت حوالى وهبطت بأبصارى الى قرارة نفسى وإذا بعقلى ينضب شيئا فشيئا ويستحيل إلى صحراء . وقلبى يتعفن وينقلب من مقدس الى مرعى ديدان ، وساعدى يفتر وهمتى تتراخى واحساسى يتبلد وشخصى كله ينكمش ويتضاءل كـكرة تتقاذفها فى شماتة وسخر أيدى الأقدار

شعرت أن بينى وبين ذاتى القديمة كما بين دم الشباب المتقدودم الشيوخة

الآسن المكفهر وخيل الى انى مت . وان السعادة التى كانوا يلوحون لى بها ليست فى الحقيقة غير سعادة الموت .

وسرعان ما أفقت من غشيتى وتفقدت وجودى واستجمعت حواسى ودمى ومضيت أضرب فى عرض الحياة باحثاً عن أثقل الجهود عبئاً وأصعبها تحقيقاً وأشقها ألماً وعذابا كيما أحملها على كتفى وأرصد من أجلها حياتى وأضطلع بها بمفردى !

وهكذا عدت إلى حياتى الأولى . ولشد ما أنا اليوم سعيد بها ولو أنى كالجندى المجاهد شاهد مائة معركة ، وما يزال يصبو الى القتال بجسم مشوه وأعضاء مبتورة وجراحات مجيدة ان هى استنفدت بعض قوى البدن فقد ضاعفت وألهبت قوى العقيدة والروح !

البطولة والعظمة

ليست البطولة فى أن تقدم على عمل لا تكاد تحقق جزءا منه حتى تقنع به وتستريح اليه وترقد مطمئن البال سعيدا بما عقد فوق رأسك من أكاليل، بل البطولة كل البطولة فى أن تحرر نفسك من مغريات المجد الناقص ومفاتن النجاح المبتور، وأن تمضى فى سعيك وتضحياتك غير حافل بما أصبت من نصر جزئى خلاب حتى تستكمل العمل الذى من أجله بدأت جهادك وعندها فقط تخول نفسك حق المتعة والهدوء

وكثير من الأبطال أو العظماء من أخذتهم نشوة النجاح الجزئى فجمدوا فى وسط الطريق، وقنعوا بما أحرزوه من فتات المجد. فانقلب جهادهم فى سبيل مثل أعلى إلى جهاد فى سبيل النفس والسلطان والظفر بأوفر قسط من نعيم هذه الدنيا.

أولئك هم أشباه الأبطال والعظماء قد تعود جهود البعض منهم على المجموع بالنفع ولكنهم فى معظم الأحايين يعطلون هذا المجموع ويعوقونه عن مواصلة السير لتحقيق ذلك المثل الأعلى

والبطل أو العظيم الذى لا تغرر به تهاويل أنصاره، ولا تؤثر فى شخصيته سموم المديح. ولا تخدعه مظاهر الاحترام والاجلال والتقديس، البطل أو العظيم الذى يعرف ماقام به وما بقى عليه أن يقوم به فيدأب على الكفاح ليل نهار حتى يتم رسالته أو يذهب لها فداء، ينبغى فوق عبادته المثل الأعلى أن يكون موفور قوى التجرد، زاهداً فى كل شىء، أصفى

من الانسانية العادية معدنا ، وأشد فى الولع بالفكرة جنونا ، وأرسخ فى التضحية قدما ، وأمضى فى الحق عزيمة وسلاحا

بل يجب أن يمثل فى رأيى صوفية العمل ، كما يمثل المؤمنون الأحرار صوفية الدين !

فالعمل عقيدته ومذهبه ، والعمل لذته وملاذه ، وبالعمل يحيا وللعمل أيضا يموت !

ومما لا يقبل الريب أن لكل بطل أو عظيم فترة من فترات حياته تستحيل فيها الدنيا أمام أنظاره إلى شىء مبهم عجيب سخيف لا قيمة له ، فينتابه الشك فى أعماله وجهوده ، وفى تقدير الناس لها ، وفى إمكان إصلاحهم بها ، فيسخط على جحودهم وغدرهم وعدم اكتراثهم ، فتعصف به عواصف التردد والإحجام ، وتستيقظ فيه عوامل الأنانية ، وتدب فى قلبه الحسرة على مافاته من متع ، ويعز عليه أنه جاد ويجود بالنفس والنفيس من أجل انسانية وضيعة الفطرة متقلبة الميول محدودة المدارك . وعندها يأخذ (شيطان الظهر) كما يسميه « بول بورجيه » فى الطواف به محاولا التسلط عليه والتراجع به وحفزه لتدمير البناء الذى شيده بعقله ودمه .

وشيطان الظهر هو ذلك الاغراء المعنوى الحسى العنيف - الاغراء بفكرة بطلان العمل وشيوع العدم فى كل شىء وإيثار المصلحة الخاصة على المصلحة العامة - ذلك الاغراء الذى يبتلى به البطل أو العظيم فى ظهر حياته - أى فى منتصفها - فيطوح به ان كان ضعيفا وتتبدد مؤثراته بعد صراع طويل ان كان ثابتا قويا

ومقياس البطولة والعظمة هو فى التغلب على هذا الشيطان وطرده والاستمرار على الايمان بأن فى العمل خصوبة ، وفى الفكرة المراد تحقيقها فائدة ، وفى التضحية خيرا ، وفى الانسانية الوهية ، وفى الجهاد المتواصل لذة لا يمكن أن تعد لها لذة !

والواقع أن اتجاه فكر البطل أو العظيم نحو الغاية التى ينشدها وإغضاءه عما سواها وملاحقته لها وإصراره على الفوز بها « كاملة » ولو هلك دونها، لمن أبلغ الظواهر فى الدلالة على خلق توافرت فيه شروط التجرد والصوفية التى هى على الدوام أهم شروط العظمة !

ومن الواضح أن الطبيعة تخير الشخصية الفذة بين عالم المادة وما فيه من مباهج ومناعم ، وعالم الفكر والجهاد وما فيه من ألم وحرمان . والبطل أو العظيم لا يختار عالم الفكر ولا يؤثر الجهاد ولا يطمح إلى المثل العليا إلا ليتصل بالخلود وهو بعد على هذه الأرض ، إذ عالم الفكر والجهاد خالد أبدى لا حد له كعالم الروح سواء بسواء !

ومن هنا تنشأ تلك السعادة التى نغبط عليها العظماء ولا نفهم سرها . فهم سعداء لأنهم يتعجلون خلودهم ويعيشون بيننا كما يعيش المؤمنون المخلدون فى جناتهم ، يغدون ويروحون فى جو روحى خالص يخضع له الجسد وتتضاءل حيال سلطانه قوى الغرائز النفعية الحيوانية العمياء !

تسليم الى الشباب

كلما خلوت إلى نفسى وقارنت بين ما كانت عليه بلادى وماوصلت اليه وساورتنى الشكوك فى مستقبلها وأوشك اليأس منها يحتل قلبى ويفتن فى تعذيبه كداء عياء. هرعت لفورى إلى مجتمع يضم طائفة من الطلبة فجلست اليهم واستمعت إلى أحاديثهم واشتركت فى جدهم ومزاحهم، وإذابالسحب المنعقدة فى جو حياتى تتبدد كأن لم تكن . ونفسى تشرق بغتة وعروقى الرخوة تندفق فيها كسيل من نار دماء صخابة جديدة تستنهض منى العزيمة وتبعث ميت الأمل وتصب فى روحى من عصارة الثقة ما يغرينى بالبطولة ويخضع لى المستقبل الزاهر الذى أريد !

إن فى مجالسة الطلبة لعزاء للنفس عن مجالسة الرجال وشفاء من الحيرة وتطهراً من القلق واستخفافا بالعقبات وتمرداً صادقا على حكمة الشيوخ التى أحالت البلد مرتعاً خصباً للجبناء !

لقد ألفنا الحكمة وأسرفنا فى تغليب العقل على الغاطفة حتى جفت نفوسنا ووهنت عزائمنا وابتردت حميتنا وبتنا أقرب إلى الهيا كل العظمية النخرة منا إلى بنى الانسان !

ومتى ساد العقل تفشى الأحجام واستشرى داء الشك ودب الخور فى القلوب . والعجز فى السواعد، واستراح الناس إلى الحلول الوسطى وعدوا الظفر بها فوزاً مبينا . . .

ونحن اليوم نهتدى بهدى العقل وحده ، ونتوهم ان مشاكلنا السياسية

والاجتماعية والاقتصادية قد يحلها العقل وحده لذلك نركن إلى الشيوخ فننظر إلى الحياة بعيونهم ونعالجها فى ضوء أفكارهم فنحسب لكل شىء الف حساب، ونقدر لخطواتنا الف تقدير، ونظل نفكر وننعم التفكير، حتى تضمحل منا القوى وتذوب العزائم، ويلتهم الفكر البقية الباقية من الهمة والارادة والأمل؛ فيتأصل الضعف فى الافئدة ويصبح العمل المثمر الجدى مستحيلا

ولكن أية نهضة فى العالم قامت على العقل وحده . وأية حضارة شيدت على الحق وحده . وأى حق مغتصب طالبت به الشعوب وتوسلت اليه بالعقل وحده ؟ . . .

إن العقل بلا عاطفة لكالزهرة بلا شمس . والعين بلا نور . والرئة بلا هواء . والجسد بلا دم واعصاب وعضل !

والعاطفة أروع ما تكون ممثلة فى الشباب وخير شباب هذا البلد هم الطلبة، ولولا صدق ايمانهم وعظيم اخلاصهم واتقاد عواطفهم - التى يسميها المستضعفون نزوات طائشة - لكان اولى بنا ان نلحد أنفسنا ونلحد البلد معنا ونقول العفاء على كل شىء .

غير أن الطلبة أحياء . بل لقد اجتمعت فيهم واحتشدت فى صدورهم خلاصة فضائل الحياة . فهم لا يعرفون الغرض ولا تستهويهم المصلحة . ولا يمكن ان يلوح لهم بالمنصب أو المال — ابدا نزاعون إلى المثل العليا ولو ذهبت أرواحهم لها فداء !

ان النهضة الوطنية فى مصر قامت على اكتافهم، وكذلك النهضة الفكرية فهم الذين يبرزون فى الطليعة ساعة الجهاد، وهم الذين يطالعون ويتأملون فيما يكتب المفكرون والأدباء .

وإذا كان رب العائلة من موظف أو تاجر أو صانع قد أنهكته شواغل الأسرة وصرفت اليها جل اهتمامه، فالطلبة هم عشاق المبدأ لذاته، والثقافة لذاتها، والعدل والحرية لوجه الله والوطن !

وهاهم اليوم بعد أن اثاروا النهضة الوطنية وانعشوا النهضة الفكرية قد اعتزموا الاضطلاع باعباء النهضة الاقتصادية أيضا

ولقد مر بى اليوم واحد منهم وخاطبنى بشأن عدد من أعداد إحدى الصحف مخصص للدعاية لمشروع القرش ولم يطلب إلى فى رجاء وأدب كما هى العادةان أكتب مقالا فيه ، ولكنه أمرنى أمراً كمن يوقن بأن لاقبل لى بالاعتراض عليه . وان جهدى لا شيء إذا قيس بجهد الجماعة ونفعها ، وإنى يجب أن أطيع فأكتب كماقد أطاع هو بالترويج للدعوة وحمل الأعداد تحت إبطه وتوزيعها على الناس فى غير تردد أو استحياء !

ووالله لقد أحسست بضآلتى وعظمته ، وعنوت له وشعرت فى تلك اللحظة فقط بلذة التضامن فى الطاعة من أجل تحقيق فكرة !

هذه اللهجة الخشنة الآمرة . هذه الروح الصلبة الصادقة . هذا الامتثال المشرق المستمد من خالص الايمان . بل هذه العزيمة الصارمة التى لا تقبل فى العمل لا جدلا ولا تسويفاً ، هى من خصائص الطلبة دون سواهم ، وهى التى تحتاج إليها مصر اليوم كى تخرج فائزة من المحنة التى يبلوها بها القدر .

والسر كل السر فى أن نعرف كيف ننتفع وننفع بهذه العواطف ، كيف نشيعها فى كياننا ونشربها نفوسنا . ونجلو بنارها صدأ عقولنا . بل كيف نضع العاطفة المؤمنة فوق العقل المتردد المتشكك بحيث تتقدم ورائدنا هذاالشباب الطامح إلى تحقيق ماهو خليق بنا من عظائم .

فلننزل على حكم الشباب . ولنسلم الأمر إلى الشباب . فقد أعيتنا حكمة الكهول حتى لتكاد تردينا مورد التهلكة !

الكهول والشيوخ قد طغوا على هذا الوطن .

الكهول والشيوخ كادوا يسممون روح الوطن .

الكهول والشيوخ ينعبون كالبوم فوق ما كدسوه من خرائب على أرض الوطن !

فى عنق الكهول والشيوخ أربعة عشر عاما من زهرة عمر الوطن انفقناها فى التكالب على المصلحة الذاتية وشهوة الكلام .

تسليم ! تسليم إلى الشباب . ذلك هو شعار عصرنا !

الشباب هم اليوم قادة كل أمة ناهضة . الحياة فى إيطاليا من روح الشباب . والحياة فى ألمانيا من عزم الشباب . والحياة فى أسبانيا من دم الشباب . والحياة فى الروسيا من قلب وعمل الشباب !

قد يكون من الشباب فى بعض تلك الأمم من يؤيد الرجعية ، ويقدس الديكتاتورية ، ويسعى لهدم الحرية .

لا شأن لنا بهذا . فالوسائل والغايات تختلف باختلاف الأمم والظروف . وانما العبرة بارادة الحياة المتمثلة فى أولئك الشباب والتى فى وسعنا اضرام نارها فى صدور شبابنا كيما نتجه بهم فى السبيل الصالح لنا والذى سلكته أعظم أمم العالم قبلنا أى من الرجعية إلى التقدم ومن الديكتاتورية إلى الديموقراطية ومن الاستعباد إلى الحرية !

تسليم ! تسليم إلى الشباب فى سبيل الحرية ! هـذا ما يجب أن يكون شعار مصر الفتاة !

وليعلم كل شاب سواء أكان طالبا أم غير طالب أن الساعة ساعته وأن مصير أمته بيده . وأنه مطالب باستطراد العمل فى شتى ميادين الجهاد من سياسية واقتصادية وثقافية ، وأنه لم يكن فى فجر النهضة عظيما إلا ليصبح اليوم وفى الغد أعظم !

وما دام المستقبل هو نتاج الحاضر والحاضر فى حاجة إلى عزم الشباب فالشباب العاملون ليسوا رجال المستقبل فحسب ، ولكنهم رجال الحاضر أيضاً .

لذلك يجب أن نوليهم قيادنا ونتبعهم . وما ضل من اتبع الصدق والأمل والايمان !

جحيم المثقفين

ليس فى مصر ذلك التلاؤم بين مختلف الطبقات الذى يجعل الحياة فيها ذات وحدة اجتماعية بارزة . وصبغة فكرية وروحية واضحة المظهر متسقة الألوان .

فطبقة الفلاحين والعمال ماتزال تعيش فى العصور الوسطى ، وطبقة الأغنياء معلقة بين روح البير وقراطية الشرقية التى خلفتها وما تزال تنميها أنظمة الحكم الاستبدادية ، وبين روح الديموقراطية الحديثة .

والطبقة المتوسطة التى استيقظت فجأة على حياة جديدة شبيهة بالأوربية فاضطربت دعائمها وعصفت بها غرائز الماضى وتقاليده وقوانين الحاضر وإحتياجاته والأمل فى مستقبل عادل مجيد ، يحول بينها وبين تحقيق ذلك الأمل سلطان البير وقراطية الاستبدادية التى ترزح البلاد تحت وطأتها .

ثم طبقة المثقفين الأحرار الذين يعيشون — علما وفكراً وإيماناً وروحاً — فى القرن العشرين بينا بلادهم متأخرة عنهم أكثر من ثلاثة قرون أو أربعة .

وهؤلاء هم الذين نعنيهم بمقالنا هذا وهم الذين يعيشون اليوم فى جحيم !

فالبعض منهم رحل إلى أوروبا أو أمريكا وتلقى العلوم هناك وشاهد الحضارة فى أتم مظاهرها . وتشربت نفسه نزعاتها وميولها . والبعض الآخر بقى فى مصر ولكنه اتصل بالغرب عن طريق الدرس والتحصيل فتكونت

له عقلية جديدة ارتقت به فوق مستوى وسطه وألحقته بالعالم الأوربى والأمريكى .

هذه الطبقة تشعر بالفارق العظيم بينها وبين سائر الطبقات وترى الهوة التى تفصلها عن مجموع الأمة وتحس نفسها منبوذة وحيدة يخشاها البيرقراطيون المحافظون وتسخر منها الطبقة المتوسطة . ولا يفهمها سواد الشعب .

ومن نكد طالعها . أن الثقافة تخلق فيها ضربا من النزوع إلى المثل العليا والتطلع إلى الكمال يزيده جهل الوسط المحيط بها قوة واضطراما .

فهى تود أن ترقى به إلى مثلها الأعلى ، وهو يود أن ينحدر بها إلى مستواه العادى .

وهى تريد أن تندمج فيه وتدمجه فيها وهو يعمل على نبذها عنه .

وهى تجتهد فى اشعاره بنقصه وإرشاده إلى مواطن ضعفه وحشد قواه للخلاص منه وهو يأبى إلا أن يعد هذه الرغبة تحديا ومروقا ، بل ثورة جديرة بالسحق دون رحمة . وقد يتفق أن تجمعك المصادفة ببعض أفراد هذه الطبقة فلا تكاد تجلس اليهم حتى تسترعيك منهم عيونهم اللامعة ووجوههم المحتقنة ولونهم الشاحب وجباههم المغضنة ومظهر الكمد الخفى المتمكن من نفوسهم ثم تهب حولك فجأة ريح الجدل فترتفع الأصوات وتبح الحناجر وتنهال عبارات السخط والتبرم تصم الآذان وتشعر المرء بما فى هذه الصدور الفتية من قوى محتجزة لا تجد لها فى الحياة اليومية منصرفاً ينفس كربتها ويشفى غليلها

وما أن تهدأ العاصفة وتفتر حمى الجدل ويعود كل منهم إلى شخصيته العادية ، حتى تلمح فى حركاتهم وسكناتهم تلك الرخاوة العابثة الحزينة الدالة على السأم وعدم الاحتفال .

وهكذا تعيش هذه الطبقة المثقفة على هامش الحياة المصرية فى عزلة موجعة فاجعة لا يستجيب لها شىء ولا ترضى عن شىء ولا يرضيها شىء .

فهى تطلب الحرية فتصطدم بحكومة تناهض الحرية . وهى ترغب فى الجهاد العملى للظفر باستقلال البلاد فتصطدم بالعزائم الخائرة والأيدى المترددة والخطط الفاشلة . وهى تود نشر ثقافتها ونفع الآخرين بها فتصطدم بالعادات والتقاليد . وبالأغلال تكبل حرية الفكر وتكاد تجهز عليها . وهى تنزع إلى الاصلاح الاجتماعى وأهم نواحيه مرتبط بنهضة البلد السياسية التى تخاذلت فى الطريق وأوشكت أن ترجع إلى الوراء نصف قرن .

هذه العوامل مجتمعة تزيد فى بؤس الطبقة المثقفة وشقائها وتوسع مسافة الخلف بين الواقع وبين احلامها وتبتليها بضرب من الكآبة والحسرة سرعان مايستحيل إلى يأس عميق يشل منها القوى

فمصيبتها أنها لاتنفك تقارن بين ماهو كائن ومايجب أن يكون . بين مايعتلج فى صدرها من عظائم وبين مايكتنفها من سخف وغباء

فكأننا حررناها لتشهد بأعينها مصرع الحرية . وكأننا علمناها لتشهد بأعينها مصرع الفكر . وكأننا ربيناها وثقفناها لتخنق جهودها فى صدرها فلا هى منتفعة بها ولا هذا الوطن المعذب

ولقد أخذت تبدو على هذه الطبقة من جراء ماتقدم أعراض داء وبيل ان نحن لم نسرع الى لفت النظر اليها والتحذير من عواقبها تأصل الداء واستفحل وقضى على هذه الطبقة الممتازة شر قضاء .

وهذه الأعراض هى الذل والجبن والأثرة وتحويل أغراض الثقافة من خدمة عامة إلى مصلحة خاصة تنشد المنصب والثروة ولو على انقاض البلاد

ونحن كثيراً ما نشاهد ذلك النفر من المثقفين الذى كان ممتلئا بالأمس حمية وحماسة يشكو اليك عقم الاصلاح فى هذا البلد ويفخر بيأسه وعجزه ويصارحك فى غير تورع ولا استحياء لم يعد غبيا كما كان بالأمس وأنه إنما يخدم اليوم نفسه لأن البلد لا يريد أن يخدمه أحد !

ذلك هو الداء الذى يفتك اليوم بجزء كبير من أفراد هذه الطبقة ، ويكاد يحصد البقية الباقية منهم

ولكن اذا كان المثقفون يعيشون اليوم فى جحيم فهل معنى هذا أن من واجبهم الثأر لأنفسهم على حساب البلد ؟

أو هم يظنون أن المعرفة والكفاءة ان لم تسد فمن حقها أن تتراجع وتنقلب الى أنانية جنائية ؟

أو هم يرون أن الامة يجب أن تسهل لهم سبيل العمل والحرية والا كانت هى المسئولة عن فقدهم ؟

ماتلك فى الحقيقة الا حجة الضعاف منهم والمهزومين

فى رأيى أن الثقافة هى التى يجب أن تشق الطريق إلى الحرية . والمثقفون هم الذين ينبغى أن يتقدموا الصفوف ويبرزوا فى الطلائع ويدافعوا عن الفكر بعقولهم ويحموه بصدورهم ويبذلوا فى تحريره كل مرتخص وغال .

واذا كان الفارق العظيم بين الطبقة المثقفة وبين سواد الشعب يجعل من حياتها جحيما فمجدها فى ألا تتخلف وفى أن تقرن جحيم الاحتمال بجحيم الصبر والجلد والمقاومة

وجحيم المقاومة هو النعيم بعينه وهو الطريق الفرد لخلاصها مما تعانى ، ولتأدية الرسالة التى حملتها إياها المقادير .

نحن فى بلد لاسبيل إلى انهاضه بغير جهود الطبقة المثقفة .

فلتعلم هذه الطبقة أنها خاسرة أولا وآخرا وانها لن تلقى على جهودها جزاء ولا شكوراً .

لن يعنى بها اليوم أحد . ولن يقدرها اليوم أحد . ولن يعضدها اليوم أحد .

فلترض بمجد التضحية الكاملة إذن ، ولتؤمن بخصوبة هذه التضحية فى المستقبل القريب أو البعيد .

المتعلمون والشعب

تصطنع مصر الحضارة الغربية . وترسل بأبنائها الى مختلف بلاد أوربا وأمريكا يتلقون العلم على أهله ويتصلون بروح الحضارة فى مستقرها ويقفون بأنفسهم على شتى مظاهرها الخلقية والثقافية .

ثم يعودون الينا لتجديد البيئة الشرقية وحراثتها حراثة جديدة . لهدم الفاسد من النظم وبناء الصالح منها ، للاندماج فى طبقات الأمة اندماجاً عملياً ونشر مبادىء الحرية والعدل بين سواد الشعب .

هذا واجبهم فهل هم يؤدونه على خير وجه . وهل نلمس فى حياتنا اليومية أثرهم الفعال . وهل نحس فى أخلاق هذا البلد وعاداته ونظمه تلك الوثبة العنيفة التى يحدثها غليان الفكر والشعور فى نفس الطبقة المتعلمة ؟

ليس من ريب فى أن البلد ناهض . وأن النهضة المصرية كسائر نهضات الشعوب الناشئة تسرى عليها أفاعيل المد والجزر ، فتارة تتقدم وأخرى تتراجع . ولكن هذا التأرجح بين الارتقاء والتقهقر . هذا الاضطراب بين القديم والجديد . هذه الحركة المطردة نفسها هى مظهر القوة وعنوان الحياة

وإذن فالنهضة قائمة . والشعور بها متأجج فى الصدور . ملازم خيالات المصلحين يبرح بهم ويقض مضاجعهم ويصليهم مر العذاب .

لا أنى أود أن أصارح نفسى والقراء بأن هذه النهضة مازالت حتى

الساعة منبعثة من الرءوس للرءوس . صادرة من المتعلمين للمتعلمين أى لمصلحة طبقة واحدة هى طبقة أهل المدن وأهل الريف المترفين .

والمسئول عن هذا هم بعض المتعلمين أصحاب الثقافة الغربية أو أدعياؤها . ونظرة واحدة على حياتهم تقنع القارىء بصواب ما أرمى اليه .

يقصد الشاب المصرى منهم أوربا فيتخصص فى فرع من العلوم . ويحصل على شهادة . ثم يرجع الينا وقد فتنه من الحضارة الغربية طلاؤها الظاهرى . وزخرفها المادى . وشتى وسائل النعيم التى أبصر القوم هناك يستمتعون بها ويقدم لهم منها الرقى الصناعى ألوانا مختلفة كل يوم .

يرجع إلينا هذا الشاب وملء نفسه الامل باستغلال علمه فى سبيل أن يحيا فى مصر حياة المرفهين فى أوربا . فى سبيل أن يصبح موظفاً ناجحاً يتحدث عن الدرجات ويرتقب العلاوات ويتطلع إلى منصب قاض أو وزير . فى سبيل أن يصبح رجلا (بورجوازيا) كاملا مطمئناً على عيشه ، مستوفياً حاجاته المادية . آمناً شر الفاقة . خاضعاً للنظام والعرف . يتجنب المصارحة بآرائه الجديدة . ويخشى الافضاء بنزعاته الحرة . مخافة أن يصطدم بالتقاليد السائدة فيتهدد مركزه ويتبدد النعيم المادى الذى يسبح فيه

هذه الحياة تولد فى نفس هذا الشاب ضرباً من الأنانية الخطرة . والجبن الحقير والنفاق الممقوت .

فهو يتعلم ليصبح موظفاً . وهو يتوظف ليصبح من القادة . ومتى اصبح منهم . وانخرط فى سلكهم واتصل بهيئة الحكام خضع لطبقته وانضوى تحت لوائها والغى عقله واحساسه دفاعا عنها . وانقطعت الصلة بينه وبين نفسه وبينه وبين سواد الشعب .

قد يكون هذا الشاب موسراً فى وسعه الانصراف إلى الأعمال الحرة

والاحتفاظ بفكره خالصاً من شوائب الكذب والرياء ، وخدمة بلاده خدمة نزيهة صادقة ، ولكنه كثيراً ما يؤثر المنصب على العمل الحر . إذ فى المنصب لذة السيادة والحكم التى يتوهم بعض المتعلمين فى مصر أنها هى التى تتفق مع ماللعلم من مكانة وسلطان ، وهى التى تتناسب مع استقراطية العلم واستقراطية المال .

فليس المنصب فى نظر أولئك المتعلمين إلا وسيلة من وسائل السيادة . وملجأ يستريحون فيه بعد عناء التحصيل . يستريحون ويستمتعون بأقل مجهود .

وإن من كان هذا مثله الأعلى ليس فى مقدوره على الاطلاق التخلص من مؤثرات الطبقة التى تحققه له وتمنحه إياه .

فهو يجتهد فى حمايتها برغمه . يتشبث بعاداتها ، ويروج لأخلاقها ، ويذود عن تقاليدها . وينسلخ عن مجموع الشعب شيئاً فشيئاً ليزداد ارتباطاً بها .

وهذا هو الواقع الآن .

فالفريق من المتعلمين الذين ذكرت لا سيما بعض المثقفين منهم فى مختلف جامعات أوربا وأمريكا قد انضموا بدافع المصلحة وتأثير البيئة المتمولة التى أنشأتهم وأنفقت على تعليمهم — إلى طبقة الموظفين والموظفين فقط . بل هم اليوم قد ألفوا طبقة ممتازة تعيش على هامش الحياة المصرية وتمثل أنانيتها الخطرة فى السعى إلى مايعود عليها وحدها بالربح الوفير .

ونحن فى حديثنا عن هذه الطبقة لا نوجه اللوم إلى الموظفين ولا نقصد اتهامهم ولكننا نعيب على بعض المتعلمين المثقفين منا عبوديتهم لفكرة التوظف وانصرافهم الى تأليف كتلة مستقلة لا تحفل بغير مصلحتها . كتلة قد انسلخت وتنسلخ عن أبناء الشعب . تحيا من كدهم وكأنها غريبة عنهم . لاتعنى بهم ولا تأبه لمطالبهم ولا تحاول التعرف إليهم للوقوف على

مدى القوى الهائلة التى تضطرم فى نفوسهم . ولدراسة حياتهم العاملة المجيدة على ضوء الثقافة الحديثة والعلم الحديث دراسة وافية شاملة أساسها الرحمة والمحبة وقوامها العدل والانصاف والحرية .

وأنا أتحدى أى فرد من أفراد تلك الطبقة أن يحدثنا طويلا وفى حنكة ودراية وعمق عن حياة الفلاحين المصريين والعمال المصريين وعن واجبه تجاه ما تتطلبه تلك الحياة من إصلاح عاجل وعن جهوده هو فى سبيل هذا الاصلاح .

بل أنا أتحداه أن يجرؤ فيصارح باحساسه العميق من نحوهم . ونظرته إليهم ومعاملته لهم سواء أفى البيت أم فى الديوان أم فى الطريق أم فى المزرعة .

ولو فعل . لو كاشف أيما إنسان بما يضمره لهم . لو خلا إلى نفسه وحاسبها على عواطفها من نحوهم . لو حلل الأفكار التى تنبثق فى ذهنه . والميول التى تحتل قلبه ساعة أن يصادف واحداً منهم . بل لو أنعم النظر فى تصرفاته حيالهم وقارن بينها وبين ما يشعر به ويفعله إذ يلتقى بنفر من أهل طبقته . لو أقدم على هذا وكانت فيه بقية باقية من ضمير حى لم تخنقه المصلحة ولم يخمده حب الترف ، فقد يشعر أن بينه وبين الفرد المتحضر المتعلم الصحيح كما بين القرد والانسان أو بين شعوب أوربا الشمالية وقبائل الزولو .

إن الترفع والكبرياء والازدراء والاستخفاف والتحكم وعدم الاكتراث وسائر غرائز الأثرة الشائعة فى الروح البيروقراطية الشرقية العتيقة هى التى تقابل بها تلك الطبقة العصرية المثقفة أبناء الشعب . وهى التى تحفر الهوة السحيقة بينها وبينهم . بل هى التى تؤخر حركات الاصلاح فى الريف بالنسبة للفلاح وفى المدن بالنسبة للعامل .

وانه ليخيل الى أن تلك الطبقة من المتعلمين لاترى فى مصر غير القاهرة والاسكندرية . ولا تعمل إلا على نقل الحضارة الأوروبية إلى القاهرة والاسكندرية حيث تنعم هى وينعم الأجانب ويتفق الفريقان على استغلال

موارد البلد لأشخاصهم وذويهم دون ما احتفال بالطبقات البائسة المنكوبة العاملة .

أجل لقد انقطعت الصلة بين تلك الطبقة وبين العمال والفلاحين ان جهل هؤلاء وانحطاطهم وفقرهم . وقذارتهم وتواكلهم ، كل هذه الأعراض تنفر منهم الفرد المتعلم المنتسب الى تلك الفئة . فبدل أن يستخدم علمه فى التقرب اليهم والاحساس بمطالبهم وايقاظ حاسة الكرامة فيهم ومحاولة اصلاحهم ، ينطوى على نفسه ويتشبث بطبقته ويزهو عليهم وينصب الحاجز الأبدى بينه وبينهم . وهو انما ينساق الى ذلك بطبيعة حياته ونظامها . فهو يعيش فى المدن . بل فى الأحياء الأوربية وبين الأوربيين . يرتاد مسارح التمثيل . ويغشى دور السينما ويطالع الأدب الغربى . ويتشدق بالكلام عن كبار كتاب أوربا وشعرائها ويجادل فى المسائل السياسية بعبارات ملؤها التحفظ والحذر والجبن . فاذا ما حدثته عن المشاكل الاجتماعية وعن موقف عمالنا من حياتنا الاقتصادية وشؤون فلاحينا وآلامهم ومطالبهم أجابك لفوره أنهم سعداء بحظهم . سعداء بجهلهم . وانهم هكذا عاشوا طوال السنين وانه قد يكون فى الرقى والتقدم شقاؤهم . فتحس لفورك بعمق الهوة الفاصلة بينه وبينهم . وتشعر أنه لم يفكر قط فيهم . ولم يخطرهم على باله لحظة . وأن حياته الضيقة الجوانب . المحدودة الفسحات . مقصورة على أعمال المنصب وملاهى المدن ومطالعة الصحف والروايات .

هذا ولو أنه رجع بذاكرته الى ما يمكن أن يكون قد طالعه من كتب التاريخ الحديث لأدرك أن المتعلمين من شبان وبنات الروس كانوا يؤلفون قبل الحرب مختلف الجمعيات تطوف القرى الروسية وتتصل بالفلاح الروسى وتتوافر على دراسته وتتعرف الى خلقه وتستمع لشكاواه وتعمل على تعليمه وتهذيبه ورفع مستواه المادى والادبى

بل لقد كان ابن البيوتات العريقة يخرج على وسطه ويندمج فى بيوت الشعب وينزح الى الريف ويحس وهو يتجول ويجاهد ويعلم ويهذب أن من واجبه احكام الصلة بين شطرى الامة ، وتوثيق روابط التفاهم والتعاون والرقى المشترك بين الطبقات القائدة والطبقات العاملة .

أما عندنا فالويل كل الويل من المتعلم المسمم العقل والروح يوم ينقل مثلا فى وظيفة الى الريف .

أنه ليستحيل اذن عنصراً جامحا من عناصر الاستبداد . يعد هذا التبدل فى حياته كارثة . فيجف طبعه . ويغلظ خلقه ويعمد الى الثأر لنفسه من الفلاحين التعساء فيضطهدهم وينكل بهم كأنهم هم المسئولون عن نقله وهم الذين سلبوه نعمة الحياة الناعمة فى المدن . وهذا الكره لحياة الريف الناجم عن سحر الحضارة الحديثة المجلوبة الى المدن وعن افتقار فريق من المتعلمين للاحساس بما للشعب عليهم من حقوق ، يؤثر ولا شك فى ثروة البلد أعمق تأثير .

فأصحاب الاطيان يعيشون فى القاهرة أو الاسكندرية ، فارين من قراهم تاركين مقاليد الأمور فيها لمفتشيهم ونظارهم .

وهذا هو السر فى أن كثيراً من المزارع الخصبة تهمل زراعتها أو تزرع باساليب سيئة فيقل محصولها بينا أصحاب الاطيان من المتعلمين حملة الدبلومات الزراعية يقنعون بايجار أطيانهم ولا يحفلون بمستأجريها ولا يشعرون البتة بأن لأولئك المستأجرين عليهم واجبات فى تأديتها مصلحة لهم وللمجموع على السواء .

وجملة القول ان فى مصر طبقة من المتعلمين فى وسعها تحطيم أغلال العادات القديمة والتقاليد البالية ولكنها لفرط عنايتها بنفسها لم تعد تعنى بالاحوال العامة للامة

فهل لشبابنا المتعلم أن يدرك أن لا علم مع الانانية . وان الامة إنما علمت رجالها لا لخدمة أنفسهم فحسب . بل لخدمة مجموع الامة ممثلا فى تلك الطبقات الجاهلة المسكينة الخليقة بكل حب وتمجيد وتضحية ؟

النفسية الانجليزية

كانت أوربا الى زمن قريب تؤمن بتوفق الانجليز السكسونيين وكان نمو الصناعة وازدهارها فى انجلترا فى القرن التاسع عشر هو الباعث الأكبر على هذا الايمان .

ويذكر المصريون أن الكاتب الفرنسى أدمون ديمولان وضع كتاباً سماه (سر تقدم الانجليز) ونقله الى العربية المغفور له فتحى زغلول . وقد أحدث هذا الكتاب عند ظهوره فى فرنسا ضجة كبيرة لفرط ماأشاد مؤلفه بالأخلاق الانجليزية القائمة على النشاط والكفاح والجرأة والمخاطرة والاعتماد على النفس وضبط الأعصاب وشيوع النزعة الفردية الاستقلالية فى الشعب الانجليزى .

تلك كانت نظرة الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة الى الانجليز ولكن هذه النظرة تبدلت عقب الحرب الكبرى ولاسيما بعد أن اتسع نطاق الحركات الوطنية فى الهند وارلندا ومصر وعصفت الأزمة بحياة انجلترا الاقتصادية وحزتها من أصولها فتكدست بضائعها وتفشت العطلة فيها وهبطت عملتها المشهورة بثباتها وتوطدها .

ولقد ذهب بعض الكتاب الفرنسيين والألمان إلى أن الامبراطورية البريطانية صائرة الى التفكك لامحالة . فوضع الصحفى الفرنسى (ريمون ريكولى) كتابه عن « اضمحلال انجلترا » وبحث الأديب الألمانى «لدويج ران» نفس

هذا الموضوع فى سلسلة ابحاث نشرتها « مجلة ألمانيا » ثم جاء العلامة الفرنسى « أندريه سيجفريد » الشهير بدراساته الاجتماعية والخلقية عن الأمتين الأمريكية والانجليزية وجعل يشرح ويحلل أعراض النفسية البريطانية التى انتهت بالشعب الانجليزى إلى مانشهده فيه اليوم من عوامل الضعف والانحلال .

وأهم ما نستخلصه من تلك الدراسات ان الشعب الانجليزى كسول بالطبع متبلد بالفطرة محافظ ورجعى محب للكسل والرفاهية إلى حد الجمود والأنانية بعكس الشعب الامريكى مثلا

فالفرد الانجليزى يحلم بحياة هادئة موفورة الرزق . حياة منظمة آلية متشابهة موزعة بين العمل اليومى المحدد الخفيف وبين الألعاب الرياضية وجلسات السمر الممتعة .

وهو فى ذلك ينزع الى التشبه بالطبقة الاستقراطية التى تحكمه وبطريقتها الوراثية التقليدية فى الحياة

ويمكننا أن نلخص مثله الأعلى فى خمسة أشياء ·

الحرص على المظهر الاجتماعى · وازدراء الثقافة والفكر . واحترام المركز واللقب والنفور من العمل الشاق · والولع بالألعاب الرياضية إلى حد الجنون . وكل هذه ولاشك أعراض ارستقراطية صميمة

وللأقليم تأثير كبير فى تكوين عقلية الفرد الانجليزى . فهو يعيش فى جو أوقيانوسى مثقل بالأمطار تهب عليه أبدا رياح الغرب . وترسل فيه ضربا من الرطوبة الشديدة تخترق الجسم وتفرى العظام .

وهذا مايفسر لناحب الانجليزى للشمس وتعلقه بالرياضة وعدم تبرمه بحياة المستعمرات . بل قد يفسر لنا أيضا ميله إلى الحياة البيتية الدافئة وحبه العزلة واعتياده التأمل الطويل واقتران النزعة العملية فى نفسه بالنزعة الشعرية

فهو عملى لأنه مضطر لمقاومة جو بلاده ليعش وهو شعرى لرغبته فى الفرار من هذا الجو والانطواء على ذاته فى محيط هادىء جميل صاف

والانجليزى أشد الأوربيين كلفا بالأسفار . يسافر بدافع التجارة ويسافر لأن السفر نوع من الرياضة . ويسافر لأنه خلق بحاراً .

ولكنه مع ذلك لا يعرف العالم . ولا يفكر فى هذا الامر لحظة . ولو أنك صادفته فى مجاهل أفريقيا وحققت النظر فيه . لوجدته نفس رجل الجزيرة الذى لم يخرج من بيته أبدا والذى عاش يألف العزلة ويتجنب الاختلاط بالناس ويخشى الرطوبة والصقيع

ويقول فى ذلك اندريه سيجفريد :

« إن جهل الأنجليز بالشعوب الاخرى لايكاد يتصوره العقل . بل إن جهلهم بعقليات الامم التى استعمروها لايمكن أن يتخيله الفرنسى أو الايطالى . لقد عاشوا فى الهند على حدة . وعاشوا فى مصر على حدة . وشدما حارت عقولهم فى تعليل أسباب النهضة الهندية أو المصرية الاخيرة كأنما كانوا بأجسامهم فى الهند ومصر وبعقولهم وعاداتهم واخلاقهم فى لندن .

ويلوح لى أنه لوحكم القدر على الانجليز بالبقاء فى جزيرتهم فلابد أن يعتزلوا العالم ويمعنوا فى عبادة تقاليدهم ولا يحفلوا على الاطلاق بفهم عقلية أى شعب من الشعوب »

فالانجليزى المقصى فى جزيرته يحيا حياة دولية بتأثير علاقاته التجارية المتسعة النطاق ومصالحه المركزة فى مختلف انحاء العالم . ولكنه برغم هذا مازال وطنيا متعصباضيق الذهن محدود العاطفة الانسانية لايدرى كيف يستعمر ولا يميل الى فهم الآخرين ولا يفكر إلا فى ان يشق الطريق لتجارته . وبينما الفرنسيون مثلا يندمجون فى الشعوب التى استعمروها ويدمجونها فيهم ترى الانجليز يعيشون على هامش مستعمراتهم محتفظين

بعزلتهم الممثلة فى عاداتهم وتقاليدهم التى يؤلف مجموعها شبه حرم قدسى لا يمكن ان ينفذ اليه أحد . ولكى يتقى الانجليز أخطار هذه النزعة ابتكروا سياسة التهويش وذر الرماد وخلقوا فى عقول الناس قوة خرافية سموها (بريطانيا العظمى) ولكن هذه القوة أخذت تضعف بعد الحرب الكبرى وبدأ الشرقيون يفهمون انها محض وهم لا يستند إلى شىء كبير من الحقائق النفسية . ولشدة ما الف الانجليز مقاومة الطبيعة فى بلادهم ولفرط حبهم العزلة تولد فى نفوسهم ضرب من التوحش والقسوة يبدو جليا فى معاملتهم سكان المستعمرات وأبلغ دليل على ذلك تلك التصرفات الفظيعة التى كان يتبعها الكولونيل وتنجهام فى معاملته المساجين المصريين معاملة تنم عن تمكن داء السادزم من نفسه أى الشغف بتعذيب الغير والتذاذ هذا التعذيب

ومن الظواهر التى تفقد الانجليزى احترام الشرقيين نفس تركيب عقله فهو بطىء الفهم بليد الفكر والاحساس عنيد فى جهل وشراسة واعتداد . لا يؤمن بالحقائق إلا بعد وقوعها . ولا يواجه الصعاب إلا فى حيرة وتردد ولا يحسب حساب الأشياء قبل تجمعها واستفحالها على نقيض المشهور عنه

تلك بعض أعراض النفسية الانجليزية كما ذكرها الكتاب الذين أشرنا اليهم وقد قال الاديب الالمانى (لدويج ران) ان الشرقيين بدأوا يشعرون بما فى هذه الأعراض مجتمعة من ثغرات هائلة يمكن أن يصوبوا نحوها جهودهم للتحرر من سيطرة الدولة التى تحول بينهم وبين الحرية والحياة !

***

الفونسو دى مادرياجا من خيرة كتاب اسبانيا الاحرار الذين قاموا بترويج الدعوة فى أوربا ضد الجنرال بريمودى ريفيرا وفى سبيل تأييد نظام الحكم الجديد فى اسبانيا

وللرجل مؤلفات عديدة تشهد باطلاع واسع وفكر ثاقب وألمام تام

بطباع مختلف الشعوب الأوربية واخلاقها ومنها كتابه المشهور « الانجليز والفرنسيون والأسبان »

وقد أعجب مادرياجا بكتابات الأديب الاسبانى جوليوارسفال ـ الذى توفى أخيرا فى عنفوان شبابه ـ لتشابه النزعات فى نفسيهما واهتمامهما بدراسة عادات الشعوب وتقاليدها . فاخذ مادرياجا على عاتقه نشر مؤلفات صديقه الشاب والتعليق عليها ولفت انظار الاوربيين والاسبان اليها .

ومما نشره له مذكراته عن انجلترا التى تلقى ضوءا ساطعا على اخلاق الشعب الانجليزى وتعيد إلى الاذهان روعة تلك البحوث المستفيضة العميقة التى كتبها فى هذا الموضوع الناقد الامريكى الأشهر (امرسون) والفونسودى مادرياجا نفسه

وقد طالعنا هذه المذكرات واسترعانا منها بعد النظر ودقة الفكر وقوة الملاحظة فآثرنا ان ننقل الى الجمهور المصرى ماعلق بذهننا منها ونعلق عليه رغبة فى الوقوف على عقلية أمة ارصدنا جهودنا لمكافحتها والتحرر من نيرها

وليس ثمة شك فى أن من أقدس واجباتنا دراسة اخلاق الشعب الذى اغتصب بلادنا وفهم أطواره ومنازعه كيما نحسن مخاطبته بلغته وندرك أوجه الضعف والقوة من نظامه الاجتماعى والخلقى

وأعجب ما أعجب له أن تكون فى اللغات الأوربية سلسلة كتب قيمة تبحث فى العقلية الانجليزية ثم لا يفكر أحد فى ترجمتها والاهتداء بها فى النضال السياسى القائم بيننا وبين الانجليز

واليك صفوة ملاحظات الأديب الأسبانى :

تقوم الأمة الانجليزية على نظام الطبقات فهناك الارستقراطية والطبقة الوسطى والشعب . كل من هذه الطبقات يحتفظ بتقاليده ويخضع للفكرة

السائدة بأن قيمة الطبقة ليست بعدد المنتسبين اليها بل بما لبعض أفرادها من سلطان الوراثة والمركز والمال .

والانجليزى رجلا كان أم امرأة يستطيع فى نظرة عارضة بسيطة أن يحدد مركز الآخر فى سلم المجتمع . وذلك عن طريق الحواس المتنبهة أبدا فى أفراد هـذا الشعب . فالعين تلحظ لفورها الهندام . والأذن تميز اللهجة . والشم يحس النظافة أو القذارة ، ويفرق ، لاسيما عند النساء ، بين شتى أنواع البودرة والعطور .

وهذا التفزز الدائم فى الحواس والاعتماد عليها فى ملاحظة الأشخاص يدفع بالفرد الانجليزى إلى اصدار حكمه على الآخرين بسرعة وتهور مستندا فى معظم الأحايين إلى الظواهر فقط .

وللانجليزى نظرة حادة ولـكنها غامضة لا تحدق فيك مواجهة أدبا من صاحبها واحتراما . ولـكنها تنبعث من عينين زرقاوين تائهتين فيخيل اليك أنها سابحـة فى عالم آخر بينا هى تتأملك خفيـة وتلاحظك وتحاسبك ثم تستصدر الحكم القاطع عليك .

وللانجليزيات حاسة شم قوية يتوسل بعضهن بها إلى فهم البعض الآخر . وان مجرد احساسهن بنوع العطر الذى تتعطر به امرأة يكفى لعدها شريفة أو غير شريفة خليعة اورصينة . بل ان معاطس الانجليزيات — وقد يسخر القارىء من هذه الملاحظة — دقيقة الشم إلى حد أنها تشعر بالفوارق الاجتماعية وتحدد مراكز الافراد وتدرك ان هذه المرأة مثلا ممرضة فى مستشفى وتلك خادم فى بيت أو مربيـة أولاد أو سيـدة نبيلة وكثيرا ما يتوقف على هـذا الاحساس اسلوب المعاملة الذى تتخذه امرأة انجليزية حيال أخرى

ومرجع هذه الظاهرة ولع الانجليزيات بالنظافة وخاصة نظافة الأثواب الداخلية التى تعد شدة اهتمامهن بها فضيلة لا تبزهن فيها غير نساء السويد والنرويج

وفى الجنس الانجليزى غريزة تؤثر فى الأمة ابعد تأثير وتنحدر من نظام الطبقات نفسه وتدفع بأفراد هذه الطبقة إلى قبول تفوق الطبقة الأخرى عليها كى تتعالى هى بدورها على الطبقة التى تليها . وقد يتسامح الانجليزى فى كل شىء ولكنه لا يتسامح فى مسألة الألقاب . ومهما كنت حرا فيجب عليك إن ذكرت الشخص الا تغفل ذكر لقبه أو تخطىء فيه فتقول (سير ارثر سمث) مثلا ولا تقول الفيكونت سمث أو المستر سمث . وهذه الخلة تطبع الحياة الانجليزية كلها بطابع ارستقراطى صميم .

وما دامت الحياة الانجليزية حياة استقراطية فهى تتكيف وفق الأمثلة التى تهبط اليها من الطبقة العليا

والملاحظ أن كل طبقة تجتهد فى تقليد حركات الطبقة العليا وسكناتها ونوع معيشتها ، فالمستر توم براون الذى يقطن فى سوربتون فيلا صغيرة مؤلفة من خمس غرف ، يخلع عليها اسم القصر المنيف الذى يسكنه دوقات دفونشير ولا تراه ينزع إلى محاكاة الارستقراطى فى اثاث بيته فحسب بل فى ملبسه وفى عقليته أيضا

أما النبلاء فكثير منهم يمتازون بالنبوغ والثقافة وفيهم طائفة كبيرة تتذوق الفنون والعلوم والآداب وتقبل عليها وتشجعها وتغذيها

ولكن الثقافة العقلية ليست مع ذلك — بوجه عام — من تقاليدهم بل هى من تقاليد الرجال الذين انقطعوا للدراسة والعلم .

والواقع أن تقاليد النبلاء تدفع بهم إلى التعلق بالسياسة العملية والحياة فى الريف والاهتمام بالألعاب الرياضية والانصراف عن الثقافة والتفكير انصراف ترفع واستخفاف ارستقراطى .

ويجاريهم فى هذه الظاهرة الانجليزى العادى فهو يتوق الى العيش مثلهم فى الهواء الطلق والتخلص من نير الثقافة واعبائها، والاقبال على الألعاب الرياضية .

وبما أنه لايعنى بتثقيف عقله ولايحسن التفكير فهو يبيح الافكار جميعاً ويتسامح فيها جميعاً ويطلق العنان لها جميعاً ولا يعرف الكبرياء الذهنية بل ويفخر فى أغلب الأحايين بجهله غير حافل بهذا النقص مادام فى وسعه ان يسده بمعرفة الحياة العملية والأوضاع الاجتماعية الشائعة التى تليق « بالجنتلمان » الانجليزى .

ومن مميزات الجنتلمان شىء من التردد فى حديثه وضرب من العزوف عن اطلاق حركة ذهنه إلى حدها الأقصى ، وبعض اللعثمة فى الكلام ، وتجنب الافاضة والشرح ، والاكتفاء بالملاحظات المتقطعة ، ومحاولة الايحاء بالفكرة بدل التعبير عنها ، والتورع عن المظاهر العقلية الحماسية ، ومراقبة الحركات والسكنات مراقبة دقيقة ، وضبط الأعصاب على الدوام ، والاحتفاظ بمظهر متحفظ بارد معتكف قد يدل على فرط الأدب ولكنه يدل فى الوقت نفسه على فقر ذهنى بالغ ومهارة كبيرة فى إخفاء هذا الفقر . . .

ولذلك نرى المجتمعات الانجليزية هادئة لايحتدم فيها ذلك الجدل الفكرى المتصفة به مجتمعات الشعوب اللاتينية .

و « الجنتلمان » يود أن يجوز طريقة غير ملحوظ من أحد وهو فى الغالب لايستطيع أن يكون له رأيا من الآراء يحاور فيه ويجادل إذ هو مشغول البال بكلابه ومنزله ورحلاته . وحتى لو كان من أبناء الطبقة الوسطى ولم يكن له من المهام المتعددة ما يصرفه عن التفكير فهو لايرضى بأن يرهق ذهنه بأفكار وآراء وثقافة علمته الطبقة العالية التى يحاكيها أن لافائدة منها ألبتة . .

أما النساء الانجليزيات فأشد من الرجال كلفا بتقليد تلك الطبقة . وفى كل امرأة انجليزية تجد دوقة مشوهة .

وفى عقل كل انجليزية تجد آراء الأرستقراطية ومبادئها قد انحدرت وتدهورت وتجمدت ورسبت .

فالانجليزية تفكر وتعمل لا بحسب ماتمليه عليها طبيعتها بل وفق أحكام المجتمع وهكذا تكبت ميولها الحقيقية وتقصيها فى اطواء نفسها ، وتحجبها عن الناس ما استطاعت وتبدو للناظر فى شكل آلى صناعى زائف تسهر عليه وتتعهده جهدها ولا تنفك تمعن فى مراقبته والمحافظة عليه .

ويجب أن نعترف بأن الولع بتقليد الطبقة العالية يهذب فى بعض الاحايين من ذوق الجمهور ولكن هذا التهذيب يؤثر فى الأوضاع الاجتماعية فقط ولا يساعد على نمو الخصائص العقلية وصقلها

وهذا طبيعى فى أمة تُخضع الفرد للمجتمع . وتخضع التفكير للعمل . وما القدرة على التفكير فى نظر الانجليز الا امتياز خاص يعود نفعه على صاحبه ، وما الثقافة الذهنية إلا نوع من التجمل الشخصى لا نطبقه على الواقع إلا نادرا أما معرفة الفرد بأوضاع المجتمع وأما التربية الاجتماعية فقوة نجربها على الدوام وننتفع بها نحن والآخرين .

ومن البديهى ان الانجليز يؤثرون الجنتلمان المهذب العملى المحدود العقل والادراك على المتعلم المثقف الحر ويميلون إلى الرقى الاجتماعى أكثر مما يميلون إلى الرقى الفكرى . ولهذا تراهم لا يحلفون كثيرا بتعليم سكان مستعمراتهم وتثقيفهم ولهذا يشعرون فيما بينهم وبين أنفسهم بالرابطة الاجتماعية أبلغ شعور . وهذه الرابطة الاجتماعية تتمثل فى تشبثهم بعاداتهم الخاصة التى لا ينزلون عنها فى أى بلد يهبطونه .

والغريب فيهم أنهم فى بلادهم يخشون انتقادات من هم أرقى طبقة منهم فلا يسرف بعضهم فى التعالى على بعض ولكنهم متى أطلقوا على العالم حملوا معهم تلك الغطرسة المعروفة وذلك الكبر العنصرى الممقوت المستمد من تلك الرابطة الاجتماعية الوثيقة التى أشرنا اليها .

ومما يدل على مبلغ احترامهم للتقاليد وعنايتهم بالاستقلال العملى دون الاستقلال الفكرى وخوفهم من التفكير الجرىء الصريح الذى يحمل صاحبه المسئوليات ان الانجليز لا يجزم بصحة شىء أبدا سواء أكان فكرة أم عاطفة فالصحفى الانجليزى مثلا يقول : « من الجائز ان هذا النبأ . . . الخ . . » فى حين ان الصحفى الفرنسى يكتب دون خشية : « ان هذا النبأ ... الخ .. » والناقد الانجليزى يقول : « يظهر ان المؤلف ملم بتفاصيل موضوعه . » فى حين ان الناقد الاسبانى لا يتردد فى القول : « هذا المؤلف ملم بتفاصيل موضوعه » وهكذا .

وقد يبدو هذا التحفظ من الانجليز كدليل تواضع وذكاء وفطنة ولكنه فى الحقيقة شعور بالعجز عن تحمل مسئوليات الفكر الحر الذى قد يخرج على ما اصطلحت عليه الجماعة من نظم وآراء

فالانجليزى عبد الجماعة . وهو متكبر مزهو فخور ولكن على حساب الجماعة وعلى انقاض نفسه كانسان مستقل يحس ويفكر ويريد

هذه بعض ملاحظات الكاتب الاسبانى (جوليو ارسفال) ومنها يتبين لنا أن الانجليزى يفكر عادة كوطنى لا كانسان . بمعنى أن العواطف الرحيمة الكبيرة . والمبادىء المثالية العالية ، والنزعات الإنسانية المشتركة لا تهمه بقدر ما تهمه مصلحة بلاده وشخصه .

والواقع انه لا يؤمن بهذه النزعات ولا يحب أن يتورط فى الدفاع عنها

والتضحية فى سبيلها إذ المبادىء الانسانية المشتركة تتطلب زمنا طويلا لتحقيقها وتبدو لأول وهلة كخيالات واحلام والانجليزى يميل بطبيعته الى الفكر العملى ذى المنفعة المباشرة التى يحس اثارها الفعالة فى محيطه الضيق المحدود

ومن العبث أن ننتظر من الشعب الانجليزى القيام بثورة من طراز الثورة الفرنسية أو الروسية ذات مبادىء مثالية تجاوز افق الحياة الوطنية وتخاطب الانسانية جمعاء

وقد يكون الانجليزى حرا . وقد يكون اشتراكيا ولكنه يظل انجليزيا قبل كل شىء ونحن نعلم ما انتهت اليه التعاليم الاشتراكية على يد المستر ماكدونلد وكيف خرج هذا الرجل الشعبى على طبقته واندمج فى الطبقة الارستقراطية التى يمثلها المحافظون وتأقلم بها وأنكر مبدأه فى سبيلها وأحال الاشتراكية الى نوع من الحكم الاوليجاركى يعمل لمصلحة الامبراطورية ولفائدة الطبقات النبيلة الممولة

هذا الشعور العميق بالوطنية والعنصرية ، وذلك الاعتقاد الوراثى بتفوق طبقة الخاصة ، وذلك الاحساس بسلطان الجماعة . يولد فى نفوس الانجليز مزيجا قويا من الاعتداد والانانية والقسوة

ولو ذهبنا فى التحليل الى أبعد من هذا لأدركنا أن القسوة انما تنشأ عن عدم الاكتراث بالغير وعدم الاكتراث وليد الكبر والكبر من مستلزمات الارستقراطية اذن فالقسوة التى نلاحظها فى الفرد الانجليزى هى مظهر من مظاهر الروح الارستقراطية التى يحاول جهده محاكاتها

وقد أشار « أندرية سجفريد » إلى النتائج الويلة التى ترتبت على ولع الشعب الانجليزى بتقليد نبلائه

فالنبلاء — كما أسلفنا — ينصرفون الى الالعاب الرياضية ويكرهون الثقافة ، ويحبون الاسفار ، وينفقون ويبذرون والشعب الذى ألف الرخاء

يقتدى بهم ويود أن يخلد إلى الراحة مثلهم . وينفق ويبذر ويستمتع أسوة بهم ، وقد ضاعفت الحضارة الحديثة أسباب اللذة التى يمتلكها النبلاء فاشتدت رغبة الشعب فى الحصول على أسباب تلك اللذة أيضا فأفرط فى الانفاق ، وأبغض العمل ، وطلب المتع ، وتراخى ودب فيه الكسل ، وفقد ملكات الاقتصاد ، فلما عصفت به الأزمة الأخيرة اختبل بها وحار واضطرب وتزعزع ، إذ هو لم يكن يتصور لحظة ان الامبراطورية الغنية قد تصبح يوما فريسة الازمات وإن من واجبه أن يقدر عواقب تصرفاته ويحسب حساب الغـــد . . .

ومما أحب أن أوجه اليه انظار القارىء مرة ثانية ظاهرة التبلد التى تبدو على سيماء الانجليز

فالانجليزى بوجه عام ليس بالرجل المتقد الذكاء السريع الفهم الحاضر البديهة ، بل هو على النقيض محدود الذهن عادى المدارك كما أسلفنا

وقد يستعيض بمتانة الخلق عن الذكاء ولكن هذا الخلق المتين نفسه لا يكاد يستثمره الانجليزى فى العمل ولا يكاد يشعر حوله بنتائجه المحسوسة الطيبة حتى يطمئن اليها ويكف لفوره عن مواصلة العمل ويأخذ فى تنظيم حياته بحيث يتمكن من تذوق تلك النتائج تذوق ارستقراطى أبى مترفع أنوف

وعليه فنشاطه يضعف بسرعة . وينقلب للحال من نشاط فى العمل إلى نشاط فى التمتع . وهذا سر ضعفه . وهذا مايستريح اليه فى حياة التوظف فى المستعمرات حيث تضمن له حكومته المركز ويضمن لنفسه الراحة والمتعة والرخاء

وصفوة القول انه لايستطيع أن يعمل بنفس الجهد وباستمرار . ولا

ان يضحى باستمرار ، ولا أن ينزل عن متعه ويقتصد باستمرار .

والويل ثم الويل للأمة الانجليزية إذا ما استفحلت ازماتها المالية وأحس الشعب بوطأة البؤس الحقيقى

وفى رأيى ان الانجليزى ارستقراطى وتاجر بالفطرة . وهو محب للتمتع لانه ارستقراطى وتاجر . وأفجع كارثة عنده ما يحل بتجارته ويصيبه فى رفاهيته وملاذه ومتعه . وهذا ما ادركه غاندى حق الادراك وما استوحاه خطته السياسية الايجابية فى مقاومة الشعب البريطانى . وهذا ما يجب أن نفهمه فى مصر كى نتجه نحن أيضاً بأساليبنا السياسية وجهة عملية نافعة منتجه

نهضة الصين وأدبها

كان الشعب الصيني حتى مقدم المصلح الكبير صان يات صن مضرب المثل في فتور الهمة ، وخور العزيمة ، وتبلد الذهن ، والاخلاد إلى الراحة ، والاستمتاع بما في التواكل من لذة الحلم والتأمل والاستسلام والعجز المطلق عن التفكير والارادة والعمل .

وكنت لا تكاد تفتح كتابا أوربيا يتناول مؤلفه شؤون الصين حتى تلمح بين سطوره أثر الاستخفاف والتهكم والازدراء بكل ماهو صيني وأثر الرغبة في التسابق إلى غزو هذا الشعب والتسلط عليه والامعان في استغلاله والمضي في فتح بلاده أسواقاً عظيمة للتجارة الأجنبية وابقائه مدى الدهر خاضعاً لحكم الامتيازات فريسة لمختلف الدول ونهبا مقسما بين المستعمرين .

وكان المفكر الأوربي أو الأمريكي يتخذ من الشعب الصيني مقياساً لعقلية سائر شعوب الشرق . بل كان يتخذه رمزاً للشرق نفسه ، يعجب بحياته الناعمة الوادعة ، وخيالاته الرقيقة الفاتنة ، وأحلامه الدينية الساحرة وماطبع عليه من صبر وجلد وقناعة وخمول ثم يفرط في اعجابه افراطاً خبيثاً سرعان مايستحيل في نفسه العملية إلى شعور بالسيادة والتفوق وضرورة بسط النفوذ الغربي على هذا الشرق الهاجع هجعة شعرية ابدية تغري بالوثبة والاقتناص .

وهكذا تحالفت الدول الكبيرة على استنزاف دم الصين . وتكالبت

عليها . وامعنت فى اذلالها . ومازال تلك الدول فى بعض مستعمراتها الصينية تبطش بجماهير الشعب المطالبة بالاصلاح وتخمد فى صدورها أولى صرخات الحرية وتقمع حركاتها الثقافية بمختلف وسائل الشدة وتعمل على ان تجعل منها القطيع الأعمى المسمم بالأفيون . المعد للالتهام لأنه ضعيف ولأنه اسيوى ولأنه شرقى .

وأن من يقرأ مؤلفات (كلود فارير) عن الهند الصينية وما يقع فيها . ومن يطالع التقارير التى نشرتها جريدة (موند) عن اعمال القمع الأخيرة التى قام بها الحاكم باسكيه فى الهند الصينية أيضاً يقف تمام الوقوف على النظرة التى تنظرها السياسة الاوربية والاستعمار الاوربى إلى كل ما هو صينى أو ما يمكن أن يمت إلى الجنس الصينى بسبب .

وعلى هذا الاعتبار كانت تجرى الدول فى معاملة الصين كانت تعتدها احط الامم الشرقية نظاما ، واعرقها فى التواكل إيمانا ، وأقدرها على احتمال الضيم ، واحوجها إلى الوصاية ؛ بل إلى العبودية الدائمة

ولكن الشعب الصينى الذى ابتدع البوصلة والطباعة والبارود والذى هجعت فى تضاعيف روحه ملكات الابتكار والخلق الأجيال الطوال . افاق من غفلته يوما وإذا بالاستعمار يجلب اليه احدث وسائل الحضارة فالصناعات الجديدة تغمر اسواقه ، والمبانى العصرية الغربية تنطاد وتتعالى فى شوارعه ؛ والجرائد والكتب والمجلات الاجنبية تحتل موادها الطريفة عقول شبانه تلق فيها بذور الشك من نحو الثقافة الاسيوية الصينية القديمة وصلاحيتها لحياة الحاضر والمستقبل .

جاءه الاستعمار بنقمة فى طيها نعمة . وباستبداد فيه عنصر القوة . وبحضارة تتطلب إعادة النظر فى القيم الاخلاقية ، الاجتماعية والسياسية التى اعتنقها الصينيون وتوارثوها وعاشوا بها وأقصتهم عن بقية العالم

ولم يفطن المستعمرون إلى انهم باستعمارهم إنما يحملون إلى هذا الشرق مكرهين أسباب الحضارة الحديثة الدالة على تفوقهم . من نظم جديدة ، وتعاليم ديموقراطية ، ومبادىء رائعة خلابة فى الحرية والعدالة والمساواة ، وعلوم واختراعات وصناعات وأسلحة يمكن أن تشترى بالمال ويعمم استعمالها فى تلك الأقطار المترامية الشاسعة . . .

هذا ما أحسه الشعب الصينى .

أحس ان هذه الحضارة السائدة لابد له من اصطناعها كى يسود . وره يوما ويتحرر من نير الأجنى .

وما لاحت فى الجو الاجتماعى بوادر هـذا الاحساس حتى اضطرب المفكرون الأوربيون وراح البعض منهـم يتساءل : ترى ماالذى سوف يحل بنا لو أن هذا الشعب الذى لايقل عدد سكانه عن عـدد سكان أوربا اتحد والتأم وتفاهم واعتنق حضارتنا وعمل على محاربتنا بنفس سلاحنا .

وكان أشد الصينيين إحساسا بهذا الانقلاب العاطفى المتمشى فى صدور مواطنيه (صان يات صن) المصلح الكبير ومؤسس الجمهورية الصينية العبقرى . لم يتردد هذا الرجل فى اختيار الطريق التى توصله الى تحقيق أمنيته رحل إلى انجلترا وفرنسا والمانيا وأمريكا وعكف على دراسة النظم المتبعة هناك وجعل يقارن بينها ويفاضل ويتخير أرقاها وأصلحها وأنسبها لأمته

ولما ان صحت عزيمته على وجوب تحرير بلاده من الحكم المطلق ومن سلطان المستعمرين جاهر بآرائه فى رسائل شاعت بين الشعب وحفظها الرجال والنساء عن ظهر قلب ، ولقنت للصبى فى المدرسة وللفتاة فى الخدر وهذا بعض ما اشتملت عليه من عبارات خالدة :

« نحن أشبه بكتلة من الرمل . ولكى نجعل من هذا الرمل خرسانا يجب ان نصب فيه اسمنت الوطنية ! »

« ان الديموقراطية الصحيحة تضع الحكم فى أيدى الشعب فيشعر كل فرد بالظلم النازل بأخيه ويحاول أن يهدم هذا الظلم لئلا يذهب هو أيضا ضحيته ! »

« يجب على كل مواطن ان ينزل لأمته عن جزء من حريته . ومن هذه الاجزاء مجتمعة تتألف حرية الأمة وحرية الفرد معا »

« على كل مواطن أن يعد نفسه مسئولا عن حسن تطبيق القانون إذ كل فرد فى الأمة العظيمة هو فى الحقيقة مواطن ومشرع ! »

إن الحاكم المطلق يمقته الشعب وينصرف بقلبه عنه ويرغمه على العيش فى عزلة . ومتى أحس المستبد بعزلته ثارت كبرياؤه وتاقت نفسه الى اجتذاب القلوب بالرشوة تارة وبالقوة أخرى . ولكن الرشوة والقوة هما السماد الطبيعى لأرض الحرية ! »

هذه النهضة الكامنة التى فجر ينابيعها (صان يات صن) انحدرت منه إلى مجموع الشعب وطبعت مختلف المظاهر الحيوية بطابعها . ولم يتأثر بها العمال والصناع والطلبة والموظفون فحسب ؛ بل سرت فى شتى فروع الحياة الفكرية وأخذت تلقح الأدب الصينى بلقاح جديد .

وكان الأدب الصينى لا يزال حتى هذا العهد متأثراً بالقصص الخرافية الدينية والحكايات الساذجة الخيالية الدائرة حول موضوعات العشق والسحر . ولكنه برغم طابعه الفطرى كان غنياً فى محيطه المحدود ممثلا فى قصص عظيمة نقل البعض منها إلى لغات أوربا كقصة الممالك الثلاث وقصة الرحلة إلى الغرب وقصة الحلم فى الدار الحمراء وقصة الآلهة التى ترجمها إلى الالمانية الفيلسوف شلجل . غير أن الداء الذى ظل ينخر الفكر الصينى ويحول بينه وبين الابتكار

والتجدد هو داء المحاكاة والرغبة المتأصلة فى تقليد الاقدمين والاعتقاد المتوارث بأن أدب السلف هو خير أدب وثقافتهم أكمل الثقافات ودينهم أروع دين ونظرتهم إلى الحياة أصدق النظرات وأبعدها مرمى وصدى .

ولم يكن فى وسع أدباء الصين - لحرج موقفهم وترددهم بين حضارتين متباينتين - أن يسموا بأعمالهم الفكرية من حيث البساطة والسذاجة والدقة إلى اعمال الاسلاف فاكتفوا بمحاكاة اطارها اللفظى وزخرفها السطحى وموسيقاها اللفظية الداوية . فكان من جراء ذلك أن اصطبغ الأدب الصينى حتى أواخر القرن التاسع عشر بصبغة لفظية محضة لا ابتداع فيها ولا روح ولا حياة .

انصرف القوم إلى عبادة اللفظ وإيثار الكلمة على المعنى والعرض على الجوهر والخيال الشعرى المصحوب بالمبالغات الشرقية العاطفية على الامانة والصدق والحقيقة والاتزان .

ولم تقف عدوى هذا المرض عند حدود الأدب والفن بل جاوزتها إلى الحياة العامة فكان الجمهور يعجب بمظاهر الاشياء ولا يكلف نفسه عناء البحث فى بواطنها . تستفزه جلبة الالفاظ فيقدسها ، ويستخفه الطرب الشائع فيها فيهلل لشخصية صاحبها . حتى أصبح كل لغوى عالما . وكل نظام شاعرا . وكل مهوش مضلل يحذق فن الكلام مفكرا ومصلحا وعبقريا .

وهكذا حبس الكتاب الأدب والفكر فى ساحة ضيقة خانقة ، وباعدوا بينه وبين مشاكل العالم المتجددة المعقدة ، وبات هم الأديب ان يستدق ويتظرف ويتخنث كى يبدع أرشق وأجزل وأحلى عبارة بدل ان يتأمل ويفكر ويحس مسجلا فى عمله اصداء الحياة الكاملة متجاوبة فى عقله ووجدانه .

وكانت النتيجة ان تجرد الأدب من الثقافة ولم يحفل بدراسة الاجتماع

ولا الفلسفة ولا الدين تمشيا مع الانماط الحديثة المتبعة فى الغرب فانحطت بذلك مدارك الكتاب والجمهور معا ، وغشيت العقل الصينى سحابة جهل كثيفة ضاعفت من غروره وزادت هوة الخلاف اتساعا بينه وبين ثقافة الغرب

وفى هذا يقول المسيو (ليبنج سومنج) أستاذ الادب الصينى :

« كانت بلادنا غارقة فى بحر من الظلمات . وكان كل كاتب من كتابنا أعمى عما يحيط به من الوان الحياة . كنا لا نؤمن بأن رسالة الادب الصحيح هى اكتناه سر الحقيقة المطلقة الكامنة وراء الاشكال والاوضاع . كنا نجهل ان الادب إنما اوجدته الحياة لفائدة الحياة وتوسيع افقها وتجميلها ومضاعفة إحساسنا البشرى بحبها والايمان بها وبقدرة الانسان على ابلاغها حد الكمال ! »

وبدا على النفسية الصينية إذ ذاك عارض جديد . هو عارض الحيرة والقلق والاضطراب وتوزع الآراء وتشتتها وانتصار البعض للفكر التقليدى والبعض الآخر للفكر الاوربى الحديث . فكانت معارك جدلية هائلة وسلسلة مقالات ملؤها المثالب والمطاعن تنشرها الصحف وتنتصر فيها لمذهب فريق أو تنقضه وتسفه آراء مدرسة أو ترفع اعضاءها إلى مصاف الرواد العظام .

وتداعت القيم الأدبية كلها وارتج الرأى العام من جراء هذا الصراع واختلطت عليه السبل ولم يعرف أى طريق يسلك ولا من أية ثقافة يجب ان يستمد فجعل يمعن فى الفوضى ويغرق فى الشحناء ويلتذ أفانين الجدل المنطقى العقيم.

ولكن هذه الفوضى نفسها كانت دليل الاحساس بالحياة . كانت أول اندفاقات الحياة التى لبثت تتجمع الاعوام الطوال فى صدور الصينيين .

وقد سجل المؤرخ الفرنسى (هوفلاك) فى كتابه عن الصين هذه الفترة من تاريخها فى مثل هذه العبارات :

« كنت لا تسمع فى كل مكان غير أصوات التذمر والشكوى . أصوات تترافع ثم تنخفض ثم تتعالى فى جلبة وحشية مروعة .

كان الشعب ينصت للطبقة المثقفة ولكن الطبقة المثقفة كانت عاجزة عن تحديد اغراضها وتوجيهها وجهة معينة واضحة .

كان المصلحون يشكون استبداد الحكومة ، والأدباء يشكون خنق الفكر وركود الأدب ، والأفراد يشكون الحيرة وعدم الاستقرار ، والأمة بأسرها تنزع الى التحرر والنهوض ولا من يأخذ بيدها ويهديها سواء السبيل

وكانت الحركة الأدبية بوجه خاص تبحث فى الحياة العامة عن الحافز الاجتماعى الذى يخلق نفسية الجماعات ويهزها من سباتها العميق ويعمل على تبديل القوانين والنظم ويرغم الأدباء على النظر الى الأدب نظرة وطنية وإنسانية جديدة تساعد الأمة فى نهضتها السياسية والثقافية المبتغاة »

تلك كانت حالهم الى أن دوت فى الجو صيحات (صن يات صن) وعندها استضاء الطريق بغتة أمام العقل الصينى وأدرك الصينيون أن زعيمهم ليس بالزعيم السياسى فقط بل المصلح الاجتماعى أيضا . وكأنهم كانوا فى أشد الحاجة الى رجل يتقدم الصفوف ويقرر المبدأ ويرسم الخطة ويعتزم التنفيذ فانقادوا إليه وتبعوه !

تبعوا صان يات صن لا لأنه جاءهم بشىء جديد بل لأنه استطاع التعبير عما يعتلج فى صدورهم من مطامح وآمال .

تبعوه لأنه كان قويا فى الحق ، صارماً فى العمل ، جباراً فى التنفيذ .

تبعوه لا فى جهاده السياسى فحسب ، بل فى جهاده الاجتماعى الاصلاحى أيضا .

وكما اتجه الزعيم ببصره نحو الغرب كذلك اتجه الشعب وعلى رأسه المفكرون والأدباء .

أحس الجميع أن لابد من جلب تلك الحضارة الأوربية اليهم وأن لابد من الاسراع فى بحثها ودراستها و تحليل أجزائها وتطبيق الصالح منها على الأمة الصينية سواء فيما يتعلق بالنظم السياسية أو أساليب العلم وطرائق التثقيف .

وكانت حركة نقل وترجمة لامثيل لها . اخذ الكتاب يترجمون ويقتبسون ويلخصون انضج ماانتجته العقول الغربيـة من أدب وعلم وسياسة وفلسفة واجتماع ، ولكنهم كانوا اكثر ما يسددون جهودهم نحوه غرض واحـد . هو البدء بتحرير البلاد سياسيا كى يتكون الاحساس الديموقراطى فى نفس الجماهير و يشعر الفرد الصينى بحريته وكرامته ومسئوليته وواجبه

واتحد الأدباء فى المطالبة بالحرية ووجدوا فى صان يات صن وانصاره خير قادة واخلص زعماء فالتفوا حولهم وروجوا لمبادئهم وشاركوهم فى تضحياتهم واستهدفوا لخطر الموت معهم واتخذوا من القلم اداة للدعاية الوطنية ووسيلة فعالة من وسائل الخلاص .

وكان ان تضافرت قوى العامة والخاصة وتمازجت والتأمت فى ظل مثل واحد أعلى فما كاد يقبل عام ١٩١١ حتى انفجرت تلك القوى واندلع منها لهيب الثورة التى دكت صرح الاستبداد وقضت على نظام الحكم المطلق فى بلاد الصين .

وإذ ذاك شعر الادباء بالعزة القومية ابلغ شعور واتمه فنشطت عقولهم وتفتقت قرائحهم واخصبت مخيلاتهم ولاح لهم فى الافق المخضب الدامى شعاع أدب قومى رائع جديد

اطلقتهم الحرية من اسارهم فأحسوا انهم كانوا بالامس دعاة للثقافة والوطنية فقط . وانهم سيصبحون بعد اليوم ادباء احراراً مستقلين خلاقين وسرت فيهم ارادة الخلق عاصفة عاتيـة تواد أن تحقق فى الادب ثورة

ثانية تكمل الثورة الاولى وتؤيدها وتحميها وتبقى الجذوة المقدسة حية متقدة فى الصدور

وللفور شرعوا يجمعون كلمتهم ويوحدون صفوفهم ويؤلفون تلك الجمعية الأدبية التى عرفت باسم (ثوار الأدب) والتى اختارت لزعامتها شاعر الصين (هوشيه) استاذ الفلسفة الصينية بجامعة بكين الوطنية

والأستاذ (هوشيه) يعد اليوم أعظم شعراء الصين ورافع لواء نهضتها الأدبية وممثل عبقريتها العنصرية والصوت القوى المعبر عن مختلف نزعات شعراء وكتاب الشباب .

وإليك احدى مقطوعاته نسوقها للدلالة على المتجه الحديث للأدب الصينى .

(الشاعر والحياة)

« لن انتحر فى الربيع ، ولن أحزن فى الخريف

لتتفتح الأزاهير أو لتسقط إذا شاءت .

بل لتلتهب الشمس أو تتقاص أو تغيب .

ماذا يهمنى ؟ !

انهم يمجدون السماء والبعض منهم يشدو بلونها الصافى ، ولكنى أود أن اعتليها واستخدمها لمصلحتى وأشرف منها على العالم !

لماذا أندب سوء حظى وأظل راقداً أبكى كالعبيد ؟

ينبغى أن أحمل الراية وأدرب ساعدىَّ على الصراع !

ينبغى أن أفرغ الاجيال مما أودع الظلم فى بطونها من عبودية ! ...

ينبغى أن تنفتح أبواب القرون أمام قدمى !

ينبغى الا اترك لسواى فرصة الظفر بالبطولة إذ الحياة قصيرة والموت بالمرصاد ويجب أن أنهض بذكرى وأخلد برغم الموت والحياة !

فلنكتسح . فلنكتسح كل تلك القاذورات ولنتفوق على أنفسنا بأنفسنا . كى نخلق للصين أ. با جديدا وحياة جديدة خالدة ! »

هذه هى الروح المستولية على الأدب الصينى اليوم . وهى كاترى روح قوة وابتداع وإرادة ومغامرة ، كان أول من أحس بخطورتها ولفت اليها إنظار الأوربيين الشاعر وعضو الأكاديمية الفرنسية بول فاليرى فى مقال له عن الصين أحدث ضجة عظيمة فى الدوائر الثقافية ووردت فيه هذه العبارة التى هى خير مانختم به هذا المقال :

ان الشعب الصينى يريد أن يعيش وإرادته الجبارة يمثلها اليوم أدباؤه أبلغ تمثيل .

فعلينا أن نرقب هذه الحركة بدقة ونقيم لها أكبر وزن لأن الأمة التى تعتزم خلق أدب جديد هى أمة تطمح الى تأسيس حضارة جديده .

فلنتجه اذن بأبصارنا نحو الصين . ولنجتهد فى الذود عن أنفسنا حيال تلك القوى الهائلة الآخذة فى التأجج هناك ، فى مجاهل آسيا السحيقة التى طالما اعتقدنا أنها أرض النوم والأحلام ! »

اليابان الحديثه

إن ابلغ العقائد الدينيـة تاثيراً فى حياة اليابان هى العقيـدة الشنتويه . وأظهر ما فى هذه العقيدة الايمان بأن عالم الموتى يتصرف تصرفا عمليا مباشرا فى عالم الأحياء

ويطلق الشنتويون كلمة (كامى) — أى الاله او المتفوق أو الاعلى — على الروح الانسانية التى تتوافر لها بعد الموت صفات خارقة للطبيعة . فالموتى أو (الكامى) هم المتفوقون اصحاب تلك الصفات والقوى الخارقة وهم بالطبع ارقى منزلة من الاحياء ولـكن الاحياء يؤثرون فيهم بما يحدثونه لهم من فرح او ترح ، من غضب أو رضى .

ويعتقد اليابانيون أن موتاهم يشتركون فى حياتهم اليومية ويقاسمونهم آمالهم وآلامهم . ويجلسون معهم إلى مائدة الاسرة ويرعونهم ويغتبطون برخائهم ورخاء اولادهم . اما حفلاتهم المشهورة من دينية وشعبية وعسكرية فيشهدها موتاهم أيضاً وتقدم اليهم فيها القرابين ويسبح بمجدهم وفضائلهم

وأذكر أنى قرأت فى ذلك للمفكر اليابانى الذائع الصيت (موتورى) مامعناه أن الموتى لايتحكمون فى افـكارنا واعمالنا فقط بل فى العـالم كله أيضاً ، فى تقلبات الفصول وعصف الرياح ونزوات النفس وشهوات البدن وما يصيب الفرد او الأمة من سعود ونحوس . وما الموتى فى الحقيقة إلا

القوى الخفية الكامنة وراء شتى مظاهر الطبيعة التى يحار العقل فى تعليلها .

تلك هى العقيدة التى تصطبغ بها الحياة القومية اليابانية والتى تدفع بالفرد اليابانى إلى عبادة اسلافه واحترامهم و تقديرهم وحبهم وحب الأسرة التى هى صنع أيديهم والوطن الذى يرمز اليهم والامبراطور - سليل الالهة - الذى يمثل صفوة أرواحهم وجهودهم وماخلفوه للأحياء من عظمة ومجد .

ولم تؤثر الشنتوية وحدها فى تكوين الأمة اليابانية بل ساعدتها فى ذلك البوذية أيضا . إذ الشنتوية - وهى العقيدة الغالبة فى طبقة الخاصة - تقول بوجوب انكار الفرد نفسه فى سبيل أسرته ووطنه وامبراطوره أى فى سبيل موتاه الذين شيدوا صرح أمته . وتقول البوذية - وهى العقيدة الغالبة فى طبقة العامة - بضرورة التجرد واحتمال الالأم وكبح جماحه والاذعان للقدر والتسليم بقانون تشتت المخلوقات المحبوبة وخلودها فى أطراف الكون اللانهائية الغامضة

فالشنتوية تربى الفرد على حب الاجداد وحب الوطن والبوذية تنمى فيه خصائص الاحتمال والتجلد وهذان العاملان هما اللذان يفسران روح التضحية الكاملة والبطولة الرائعة التى اشتهر بها الخلق اليابانى .

ومما يجدر بنا انعام النظر فيه قبل أن نوغل فى هذا البحث ان ليس هناك أى وجه شبه بين احساس اليابانيين بقداسة الماضى وحبهم اسلافهم وتقديرهم لهم وبين أمثال هذه العواطف عند الغربيين .

وقد يعرف الاورى كل شىء عن تاريخ اسلافه ولكنه لايحبهم ولا يشعر بوجودهم اليومى إلى جانبه شعور اليابانى وحبه لهم

ان الاوربى ينتفع من الماضى بعقله فيــدرسه ويحلله ويرغب فى أن يستحدث منه جديداً ليحسن تنظيم مشاكل الحاضر المعقدة ويستكمل الصورة

المبتكرة الطريفة التى يود ان يخلعها على المستقبل . انه ينقد أعمال اسلافه بعقله العلمى المتشكك اليقظ نقدا محايدا باردا لا تشوبه عاطفة الحب المتحمس ولا عاطفة المهابة والتقديس . انه يدرس الماضى فى محيطه المحدد وعصره المعين وزمنه الخاص وما استقر فى الحاضر من رواسبه ، ولكنه لا يؤمن بتأثيره الابدى فى الفرد وفى مجموع الامة

انه يشيد بفضائل موتاه العظام ليقتدى بهم ويلهب فى نفسه غرائزهم من أنانية وطمع ومجالدة وكفاح ، ولكنه لا يتخذ من أعمالهم قاعدة لهذه الحياة واحساسا دينيا ثابتا بمعانيها واغراضها ومثلها العليا

ان الغربى لا يؤمن بوجود صلة روحية يومية عاملة بين الخلف والسلف لا يؤمن بوجود الارواح وانما يؤمن بنفسه فقط وباستطاعته أن يحول — على ضوء عقله العلمى — ماوصل اليه اسلافه من نتائج عظيمة ، الى مادة شخصية يصوغها وفق هواه ويبدع منها عظمته المستقلة وعمله الخاص ولو خالف هذا العمل ماتواضع عليه السلف الصالح من نظم وتقاليد ومبادىء وآراء .

وهذا هو السر فى أن اليابانى وطنى بكليته والأوربى أو الأمريكى وطنى وفردى معاً أى أن اليابانى يود أن يفنى فى أمته ووطنه فحسب ولكن الأوربى أو الأمريكى يود فى الغالب أن يخدم وطنه كمواطن وأن يخدم فى نفس الوقت فكرته كفرد مستقل حر وان تعارضت هذه الفكرة مع التقاليد السائدة وكانت فى نتائجها أقرب إلى النزعة الانسانية منها الى النزعة الوطنية

هذه الخواطر بعض ماعلق بذهنى من مطالعاتى أعمال كتاب ومفكرين توافروا على دراسة اليابان كـ (لفكاديوهرن) فى مؤلفه (قلب اليابان) و (رينيه جروسيه) فى كتابه عن الحضارات الشرقية و (هوفلاك) فى ابحاثه الممتعة عن الصين واليابان . وقد استعدت هذه الخواطر وأنا أطالع كتاب (جولة فى ربوع آسيا) للأستاذ محمد ثابت مدرس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية .

وهذا الكتاب يصف الرحلة الأخيرة التى قام بها المؤلف إلى آسيا ويتناول الجزء الأكبر منه حياة اليابان وعاداتها وتقاليدها وأنظمتها السياسية والاقتصادية .

ولقد اتخذ الأستاذ محمد ثابت فى كتابة رحلته أسلوباً يعرض لأشياء عرضا متناسقا ويعرف كيف يستعين بالملاحظة الدقيقة والاستنتاج المنطقى على ابراز مميزاتها وخصائصها والافاضة فى شرحها وتحليلها ثم التعليق بما لها أو عليها من مختلف الآراء التى تسنح للمرء أثناء مشاهدتها والطواف بها .

وقد اهتم المؤلف بدراسة اليابان دراسة مفصلة مسهبة لانها الامة الشرقية الوحيدة التى استطاعت ان تضارع اقوى امم الغرب نفوذا وسلطانا فى أقل من نصف قرن ولأنه قد يكون من مصلحتنا ان نقتدى ببعض ما يتفق ومزاجنا من اساليبها فى نقل الحضارة الاوربية . .

ويجدر بى ان اشير هنا قبل ان امضى فى التحدث عن هذا الكتاب الى أن عصر النهضة اليابانية لم يبدأ إلا فى عام ١٨٩١ — كما يقرر ذلك العلامة الفرنسى (لامازلير) — أى لما أن دالت دولة الحكم المطلق وحل محله النظام الدستورى الذى الغى اقطاعيات الاشراف وقرر حرية التجارة والزراعة والصناعة وفصل بين الكنيسة والدولة وحطم نظام الطوائف واستبدل به نظام الطبقات الثلاث : النبلاء والعسكريين والشعب ، واباح الزواج بين اهل هذه الطبقات وسهل للفرد ايا كانت طبقته احتراف شتى المهن والطموح إلى اعلى مناصب الدولة وجعل الجميع متساوين امام القانون بغض النظر عن الطبقات التى ينتمون اليها .

ولكن الحكومة اليابانية ظلت على الرغم من هذا ذات صبغة ارستقراطية

اوليجاركية تبدو واضحة فى تلك الهيئة التى يطلقون عليها هناك اسم (جنرو) وهيئة الجنرو مؤلفة من سياسيين محنكين يستشارون فى امور الدولة ويقترحون تعيين رئيس الوزراء ويهتدى برأيهم فى المشاكل العسكرية ويعين من بينهم وزير الحربية والبحرية . ويقول فى ذلك الاستاذ ثابت « أن هذه الهيئة تحسب للرأى العام حسابا والرأى العام فى اليابان قوى جدا فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة عام ١٩١٤ استقالت الوزارة وكذلك التى تبعتها عام ١٩١٨ وهى وزارة (تيروش) الذى كان ينتمى إلى هيئة الجنرو ويومئذ قام الناس باعتصاب الارز الذى اسقط الوزارة لوقتها »

وهذا حق . ولكن هيئة الجنرو هى هيئة تمثل بقايا عهد العسكرية والأقطاع ومجرد وجودها حية الى اليوم تستمد سلطانها السياسى من نفوذها التقليدى والحربى وتتدخل فى شؤون الحكم ولاسيما فى اعمال وزارتين خطيرتين كالحربية والبحرية كثيرا ما يؤثر فى اتجاهات السياسة العسكرية فى اليابان أعمق تأثير

ولقد نشر البحاثة السياسى والاجتماعى (الكونت سفورزا) صاحب كتاب (بناة أوربا الجديدة) مقالا فى مجلة باريس بعنوان (الصين واليابان فى منشوريا) وردت فيه هذه العبارة :

« يجب أن نسلم بأن بعض المظاهر الاخيرة للسياسة اليابانية تبدو لنا كأنما قد أوحت بها مصالح الطبقة العسكرية والاقطاعية وتقاليدها اكثر مما اوحت بها رغبة مجموع الشعب »

وهذا يدلنا على مبلغ نفوذ هذه الطبقة وخطرها .

ويلوح لى استنادا الى حوادث اليابان الأخيرة وبرغم الصلح المؤقت الذى عقد أخيرا بينها وبين الصين أن السياسة اليابانية تعمل اليوم لمصلحة بعض دول أوربا .

إذ من مصلحة انجلترا ولاشك أن تسترسل اليابان فى طغيانها الاستعمارى فى منشوريا وأن تمنى نفسها ببسط نفوذها على سيبريا الشرقية وتأسيس امبراطورية أسيوية عظيمة بحيث يفضى هـذا كله الى نشوب صراع بينها وبين الروسيا أو الولايات المتحدة يضعف أمريكا ويهز دعائم النظام السوفيتى الذى يسعى ساسة أوربا للقضاء عليـه وعلى نفوذه فى الصين .

واليابان تستغل هذا الموقف وتتقدم نحو تحقيق غاياتهـا الاستعمارية خطوة فخطوة وتمضى فى بسط نفوذهـا على منشوريا كما بسطته بالأمس على كوريا تمهيـداً لانشاء الأمبراطورية العظيمة التى تطمح اليها

والواقع انه لو استقرت الأمور لليابان فى مستعمرتها الجديدة الحافلة بالمناجم وهذا فرض جدلى فستتزود بواسطتها ولاشك بأحدث وسائل الانتاج وارقاها وعندئذ تصبح أوربا كما يقول (هنرى باربوس) بين قوتين تجاريتين مزاحمتين هائلتين : قوة الروس وقوة اليابان فلا تجد مندوحـة عن مد شباكها وبذر بذور الحرب فى آسيا وهى لابد مستعينة لبلوغ هذا الغرض بتلك الطبقة العسكرية الاقطـاعية ذات النفوذ الواسع فى اليابان

ولـكن هل تدع اوربا النفوذ اليابانى يتضخم فى منشوريا ويستقر ؟

أكبر الظن ان الامر على النقيض وان اوربا ستعرف كيف تخلق الصعاب لليابان عند الحاجة وتستخدم لاغراضها المعارضين لدولة منشوريا الجديدة والشيوعيين الصينيين واحرار كوريا الذين مابرحوا ينشدون استقـلال بلادهم ويضحون فى هذا السبيل بكل عزيز وان اسراف اليـابان فى اغراق أسواق أوربا ومستعمراتها بمختلف بضائعها سيضطر الاوربيين فى النهاية الى التـألب عليها وعرقلة جهودها فى منشوريا او دفعها الى الدخول فى حرب ضد أمريكا أو الروسيا

اما حلم اليابان بتدويخ الصين والانتصار النهائى عليها فحلم باطل اجدر باليابانيين الحذر منه وعدم الاستسلام له إذ الصين كما يقول (الكونت سفورزا) اشبه بكرة هائلة من المطاط تحتمل شتى أنواع الضغط ولكنها سرعان ماتعود إلى حالتها الاولى عند ماتفتر وطأة الأصابع التى ضغطت عليها متمنية سحقها

والدليل على ذلك أن اليابان قد استطاعت أن تحصل فى منشوريا منذ عشرين عاما مضت على عدة امتيازات رسمية ولكن عدد رعاياها القاطنين بمنشوريا لم يبلغ برغم هذا أكثر من ١٨٦٫٠٠٠ يابانى فى حين أن عدد الصينيين - فى منطقة السكة الحديدية حيث لليابان أوسع سلطان - كان يقدر بخمسين ألفا منذ عشرين سنة فاصبح اليوم يربى على ٨٥٦٫٠٠٠ الف .

وصفوة القول أن السياسة الاستعمارية التى تروج لها فى اليابان تلك الطبقة العسكرية التى أشرنا اليها لن يكون منها إلا انها سوف تخدم المصالح الأوربية فى آسيا

أما عن النهضة الصناعية فى اليابان فاليك ما يقوله الأستاذ ثابت .

« إن الدولة هى التى فتحت المصانع ولاتزال تديرها وهى التى أوفدت الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة فى الخارج واستقدمت الخبراء من الأجانب وأنشأت المدارس الحكومية وفتحت الغرف التجارية ولاتزال تمنحها الاعانات المالية . كذلك اقامت المعارض الصناعية فى كل البلدان وهى التى تزود التجار بالمعلومات عن الاسواق الخارجية وحتى المصانع التى انتقلت إلى أيدى الافراد لاتخلو من الرقابة الحكومية . والحكومة تمون المصانع كلها بالقروض والاعانات المالية وتشرف على الهيئات التعاونية التى تفوق الالف والتى تتعاون على تنظيم الانتاج والتصدير وظروف البيع ولهذه حق قانونى فى فحص صادرات البلاد محافظة على سمعتها الصناعية فى الخارج . . .
إن النهوض الصناعى فى اليابان جاء فى عصر ظهر فيه فضل الانتاج الكبير

الذى لا يقوى عليه الفرد بل الجماعات والمتعاونات وشعر الكثيرون بضروة معاونة الحكومة وتدخلها فى تحديد المزاحمة . والاشراف الحكومى فى اليابان منطبق على نظمها الاجتماعية التى تقضى على الأفراد بالطاعة للاسرة والولاء للدولة فهم جميعا يؤيدون التعاون بفطرتهم ولا يثقون بالمجهود الفردى رغم ما لهذا من اثر سيء فى القعود بقوة الابتكار . . . »

وفى رأينا ان قوة الابتكار الصناعية كان لابد من توفرها فى عصر الصناعات اليدوية اما اليوم وقد انتشرت الآلات واتبعت طريقة الانتاج التجمعى الكبير الذى يعنى بالكمية أكثر مما يعنى بالكيفية فخير طريق لتنظيم هذا الانتاج هو النظام اليابانى الحالى الذى يخول الحكومة حق الادارة او الاشراف على وسائل الانتاج

ولكن ادارة الحكومة أو اشرافها على وسائل الانتاج لا يمكن أن يعود بالفائدة على المجموع ولا سيما على المنتجين من ابناء الشعب الا اذا كانت الحكومة تمثل الطبقات العاملة المنتجة تمثيلا صحيحا كاملا . اما فى اليابان فالحكومة ما تزال كما أسلفنا ارستقراطية الطابع ولذلك يضطهد العامل اليابانى ويرهق ارهاقا فظيعا مقابل أجر ضئيل حقير هو الذى يسمح فى الواقع لأصحاب الشركات باغراق الاسواق العالمية والتفوق فى التنافس التجارى

أما الفلاح اليابانى فلم يتطور بعد وفى هذا يقول الأستاذ ثابت : « إن الفلاح اليابانى شبيه بالفلاح المصرى ، حتى فى معيشته لا يزال كما كان أجداده فى الملبس والغذاء والاخصاص الخشبية والملاهى وحتى رأس السنة لا تزال فى الأرياف بالحساب القمرى (تام الشبه بفلاح مصر) . والفلاح لا الصانع هو ممثل السواد الاعظم هناك ويقوم بأعمال أخرى الى جانب زراعته وأخصها تربية دودة القز واستعمال الأنوال اليدوية للقطن ، وصناعة

صناديق الخيزران والورق تطلى باللاكيه · كل ذلك يصنع فى البيوت ويسلم للمتعهدين من التجار · ويشتغل مليون فلاح ونصف مليون بصيد السمك عماد غذائهم الحيوانى. وقد تعجب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الانتاج الحديث لها لكنك إذا علمت أن غالبها يتعلق بالغذاء والملبس والمسكن وان هـذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب . ولم تنجح الآلات الضخمة إلا فى الاشياء الغريبة عن البلاد التى تصنع للتصدير لا للاستهلاك الداخلى »

ومعنى هذا ان الآلات الضخمة تعمل لمصلحة بعض الممولين المصدرين من أهل المدن وأن السواد الأعظم من الشعب مايزال على حاله الاولى وان هذا التقدم الصناعى لم يقترن بتقدم شامل عميق فى الأفكار والمعتقدات والتقاليد لانه انما يقوم على الابقاء على هذه العوامل حية نامية فى نفوس الشعب.

ومن مساوىء التقاليد اليابانية أيضا تشجيعها الزواج المبكر وعدم شعور الآباء اليابانيين بما عليهم من مسئوليات نحو ابنائهم لان رعاية البنين فرض على الاسرة بأكملها لا على الأبوين فقط.

وهناك ظاهرة أخرى وهى ان الدين الشنتوى يحض على التناسل وينفر من الزواج العقيم . والحكومة تعرف هذا وتحسن استغلاله ولا تسمح بقيام أية دعاية تحض على تحديد النسل دفاعا عن الناحية العسكرية من نظام الدولة وقد ترتب على هذا ان تكاثر عدد السكان فتعللت به الحكومة للشروع فى الفتح والاستعمار

واسمع الآن مايقوله الاستاذ ثابت . « يتساءل الكثير عما إذا كانت المدنية الغربية ستكتسح تقاليد اليابان ونظمها · ونحن نلاحظ أن روح

الاقطاع لاتزال تسود النظم السياسية وان النظام الاجتماعى والاقتصادى سيظل شرقيا بتهذيب بسيط . فدعامات المدنية لاتزال هناك شرقية بحتة لان اليابان لا تثق بفلسفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينه وسياسته ولايزال الناس يحافظون على مساكنهم وملابسهم ومعابدهم وألعابهم أما طرق المواصلات ونظم المدارس والمصانع والمصارف وما اليها فاضحت غربية بحتة لذلك نمس هناك التصادم بين المدنيتين فى أشياء كثيرة »

وهذا فى عرفى هو الجانب الخطر فى النظام اليابانى . ونحن بصفتنا أمة شرقية ناهضة علينا ان ننعم النظر فيه ألاّ نؤخذ بسلطانه الظاهرى أو نخدع فنرى فيه مثل التطور الاعلى . إذ ليس المهم فى أمة من الأمم ان ترقى الدولة فحسب بل يجب أن يرقى الافراد أيضا . وكل رقى صناعى لا يستتبعه رقى فى الاخلاق والعادات والافكار والتقاليد لايكون من شأنه إلا ان يبقى سواد الشعب على جهله فريسة للموابن والبيروقراطيين ورجال الدولة

والمهم الا يتناول التطور الحياة لاقتصادية فى الامة فقط بل ان ينفذ إلى حياتها الدينية والاجتماعية فيجددها وينعشها ويلائم بينها وبين ماوصلت اليه من رقى مادى

والسبيل الى هذا هو ألاّ تمالىء الحكومة الشعب على تقاليده البالية وألاّ تتخذ من هذه التقاليد دعائم تشيد عليها صرح قوتها وأن تفصل بين الشؤون الاقتصادية والسياسة وبين الشؤون الاخلاقية والدينية وان تطلق حرية الفكر إلى ابعد مدى كى ينمو فى الفرد إحساسه بالكرامة والحرية والمسئولية والاستقلال الشخصى فيستطيع أن يجدد فى الأخلاق والعادات والعقائد والفنون والآداب وان يشرف على عمل الحكومة ويراقبه وينقده

وما قيمة امة لاتعنى برقى جميع افرادها على السواء بحيث تسهل لكل منهم الاشتراك الفعلى المباشر فى مراقبة شئونها وإدارتها ؟

ماقيمة أمة يستعبد أغنياؤها فقراءها وتجهيز الدولة فيها على عقول ونفوس فلاحيها وعمالها وهم أغلبية الشعب الساحقة ؟

بل ماقيمة أمة تقلد جهدها حضارة القرن العشرين ثم تغذى معظم أفرادها بثقافة القرون الوسطى ؟

مما لاريب فيه أن الدولة يجب أن تتطور وتقوى ولكن ليس على حساب الفرد بل بواسطة الفرد ومن اجل رقيه وسعادته . وهذا هو جانب النقص فى اليابان الحديثة

الأوربيون وغاندى

ان غاندى رسول دينى وزعيم وطنى وقد استخدم دعوته الدينية لتحقيق مطالبه الوطنية أى فى سبيل غرض مادى . هذا على ما أعتقد هو الذى يقدره الأوربيون فيه .

فهم ينظرون اليه نظرتهم الى شرقى متصوف استطاع تطهير عقائده الدينية من نزعاتها الخيالية المحضة ، وعرف كيف يربطها برباط الواقع ويثير بهذه الواسطة نفوس الملايين من الأسيويين العجزة صرعى الخيالات والأحلام .

أما جوهر رسالته الدينى والفلسفى والخلقى فأكبر ظنى أن الأوربيين لايحفلون به كثيرا إذ هو يدعو إلى نقيض المبادىء التى أقاموا عليها حضارتهم .

فالأوربى يعجب بغاندى ويقدره لا لأنه قديس ولا لأنه يروض نفسه على الزهد والتقشف فأمثاله من الزهاد والمتصوفة فى الهند كثيرون بل لأن غاندى رجل عملى الى أبعد حدود هذه الكلمة . يخاطب الأوربيين بلغتهم وبينا هو يلوح لهم بأسمى النظريات الروحية اذا به يصيبهم فى مصالحهم ويحاول أن يهز امبراطورية عظيمة من الاعماق .

وليس معنى هذا أن الرجل منافق وانه يصطنع القداسة يستعين بها على قضاء أغراضه العملية .

كلا . فهو صادق، مؤمن بأن المحبة واجتناب العنف والتضحية هى خير الفضائل وخير الوسائل لتحقيق استقلال بلاده .

وقد تكون هذه الفضائل خير ما يتلاءم والروح الهندية فى سعيها نحو الحرية أما أن يعتقد الاوربيون بصلاحيتها للحياة اليومية والجهاد السياسى وتكوين أمة عصرية متحضرة فهذا ماشك فيه

ان غاندى ينادى بالعودة الى الحضارة الزراعية الفطرية ومقابلة الشر بالخير وإيثار ملذات الروح على ملذات البدن ولكن الحضارة الحديثة ترى الخير كل الخير فى العمل والانتاج الصناعى وتوفير أسباب الرفاهية لأكبر عدد ممكن والكفاح لحماية هذه الرفاهية والاستزادة منها ولو على انقاض المهزومين من الشعوب الشرقية المستعبدة ومن نفس الشعوب الضعيفة التى تعتنق الحضارة الاوربية

ولقد ظهر تولستوى قبل غاندى فهللت أمم الغرب لفنه وعدته أعظم قصصى انجبه القرن التاسع عشر ولكنه ما أن نضاعنه ثوب الفنان وارتدى مسوح الراهب وراح يبشر بمثل التعاليم التى يبشر بها غاندى اليوم حتى ثارت ثائرتهم عليه ورموه بالحماقة والجنون ومجده بعض مفكريهم على اعتبار أنه داعية من دعاة المثل الخيالية العليا فحسب ، وانه لهذا السبب وحده حقيق بالتجلة والخلود . . .

ورب معترض يقول ولكن تعاليم المسيح وتولستوى وغاندى الدينية والاخلاقية قد تصلح للتعامل بين الافراد إن لم تصلح للأمة كمجموع .

ولكن الحقيقة أنها لم تعد تصلح للفرد الاوربى الحديث . بل هى تتعارض مع جو الحياة الذى يسبح فيه وان حضارة تقوم على التفنن فى استنباط وسائل الرخاء المادى . وعلى تربية روح المزاحمة والتفوق الاقتصادى ، وعلى استخدام وسائل القتل والتدمير لإنماء صناعة من الصناعات أو ايجاد منفذ تجارى جديد ، لهى حضارة لاتعلم الفرد الخنوع والاستخذاء ومقابلة

الشر بالخير بل هى تعلمه أن من لا يأكل يؤكل ومن لا يبرز فى الطليعة يداس بالأقدام ، وان كل شر لا يقابل بمثله يستفحل وينقلب خطرا على الفرد والمجموع

فالجزء العملى من تعاليم غاندى هو الذى يسترعى اهتمام الغرب . أما الجزء الروحى فلا يتلاءم ألبتة وطابع المدنية الحديثة .

وغاية ما تخشاه أوربا أن يفصل الهنود بين غاندى كزعيم روحى وغاندى كزعيم سياسى ، وأن ينبذوا تعاليمه الروحية الأنسانية ويأخذوا بخططه الوطنية العملية كالمقاطعة والعصيان المدنى ثم يقرنوها بالفضائل الغريزية القائمة عليها المدنية الأوربية أى فضائل الكفاح والقوة والتفوق والمنافسة والرفاهية المادية والشعور الدائم بأن الأصلح والأسبق هو الجدير بنعمة الحياة

ولكن هذا الذى تخشاه أوربا بوجه عام وبريطانيا بوجه خاص أصبح لا يقاس بالنسبة الى التطور الجديد الذى وصلت اليه النفسية الهندية

والواقع أن غاندى قد أصابه هذه الأيام فشل مزدوج فى الجانبين الروحى والعملى من سياسته . فلا عقائده الدينية ولا خططه العملية «السلبية» أفادت فى مفاوضاته مع الأنجليز وحملتهم على الاعتراف باستقلال الهند ولذلك اخذ الرأى العام الهندى يتحول دفعة واحدة من أقصى الاعتدال الى أقصى التطرف ، ومن خطط غاندى العملية « السلبية » كالمقاطعة والعصيان المدنى الى خطط الارهاب والى الافكار والمبادىء الاشتراكية المتطرفة التى يدعو اليها الزعيم جوهر لال نهرو .

ومسئولية هذا الانقلاب تقع على عاتق السياسة الانجليزية التى افلتت من يدها فرصة الاتفاق مع غاندى فى الوقت المناسب

وهكذا معظم شعوب الشرق المستعبدة يدفعها ضعفها وروحانيتها الوراثية الى بدء كفاحها بالوسائل السلبية فاذا ماطال عليها الزمن ولم يقدر الخصم نبل جهادها وعظمة تضحياتها وراوغ وماطل واجتهد فى كسب الوقت والحق بها الفشل ، استحال يأسها الى قوة متحدية مغامرة مستقتلة لاتفكر فى تعديل خطط الجهاد وفق نزعات الروح السلمية السلبية بل تطفر دفعة واحدة الى قطب التطرف والعنف

وهذا هو الدرس الذى تلقيه الحركة الغاندية على الانجليز والاوربيين جميعاً

الشخصية الانسانية

يحاول معظم علماء النفس المعاصرين أن يثبتوا أن الشخصية الانسانية قوامها الفوضى ، وأن عواطفنا وميولنا ليست ملكا لنا وإنما هى ملك الغريزة والبيئة والوراثة والظروف تتحكم فيها وفق هواها وتسيرنا برغم ارادتنا فى الطريق الذى تريد

فنحن فى زعم أولئك العلماء مخلوقات غامضة مبهمة مشردة على سطح الحياة تعتقد انها ذات عقل مستقل وعزيمة ماضية وإحساسات محددة وما هى فى الحقيقة إلا مجموعة من الظلمات والمناقضات يدهش لها كل إنسان ذكى عرف كيف يهبط إلى قرارة نفسه ويلاحظها ويفحصها ويحلل أجزاءها ويرد انفعالاتها إلى الاصول الخفية التى انحدرت منها

فعند ما يشعر الفرد بلذة الاعجاب مثلا حيال زهرة جميلة ، أو غادة فاتنة ، أو غروب شمس رائع جليل ، يقول أولئك العلماء ان الاصل فى الاعجاب بالزهرة أو الغادة أو غروب الشمس هو حادثة معينة وقعت لنا فى ماضى حياتنا واتصلت بهذه الاشياء الجميلة ، واندست فى عقلنا الباطن ، واستيقظت الآن بحكم الحوادث والظروف المتشابهة وبدافع الذكرى التى ترسب فى نفوسنا ردحا من الزمن ولكنها لا تموت .

وعند ما يشعر الفرد الذى قضى الاعوام الطوال فى رياضة نفسه على

فضيلة العفة انه قد استحال فجأة الى وحش ثائر مجنون وانه يرتكب جريمة الزنا بل وينتهك عرض عذراء بريئة بلا وازع من خلق أو ضمير يؤكد العلماء أن السبب فى ذلك يرجع الى الاسراف فى العفة والى كبح العوامل الجنسية الطبيعية فى النفس والى ان هذه العوامل يهدأ ثورانها فى الظاهر ولكنها ماتزال تتجمع فى عقلنا الباطن حتى تلهبها الظروف فتعصف بنا وتستبد بمبادئنا وتهدم صرح الفضيلة الذى شيدناه بعقلنا ودمائنا

وعند ما يعتنق الفرد مذهبا من المذاهب الدينية أو الاجتماعية أو الفلسفية يذهب بعض أولئك العلماء الى أن الحقيقة ليست هى فى الواقع الغاية التى أعتنق الفرد من أجلها هذا المذهب ، وانما مزاجه هو الذى دفعه اليه

فأنا قد أكون بحكم مزاجى وأعصابى وتقاليد بيئتى من المتجردين المتأملين ذوى المخيلات الشعرية الوثابة فأعتنق مذهبا من المذاهب الروحانية . وأنت قد تكون من العمليين فتعتنق مادية الحضارة الحديثة وغيرنا قد يكون حاد العاطفة ، دموى المزاج ، فيعتنق المبادىء الثورية الهادمة وهكذا كل بحسب طبيعته والتربية التى تلقاها والوسط الذى نشأ فيه

ويقول ذلك الفريق من العلماء أيضا ان جوهر النفس الانسانية أبعد مايكون عن الوحدة . وان النفس موزعة الاهواء والاحساسات وان لكل منا عدة شخصيات تخلقها الحوادث القوية المتعددة التى نمر بها فى حياتنا اليومية.

فهناك رجل تلجئه الظروف الى احتراف مهنة لا يشعر من نحوها بأى ميل فتتكون فيه شخصية مطابقة لضرورات تلك المهنة . ولكنه لا يكاد يفرغ من عمله اليومى ويجتمع برفاقه الذين يحبهم حتى يتلبس بشخصية جديدة مرحة ينفس بها عن صدره ويجتهد أن يوفق بينها وبين الجو الجديد الذى يعيش الآن فيه ..

وهذا الرجل نفسه لا يلبث أن يدخل الى بيته ويتصل بزوجته التي يكرهها لأسباب وعوامل تجمعت أثناء حياتهما الزوجية حتى يتلبس بشخصية ثالثة وينقلب انسانا قاسيا وضيعا شريرا ينكره أصدقاؤه الذين شاهدوه منذ لحظة يبسم ويضحك وينكت ويمثل دور الانسان السعيد

هذه الشخصيات الثلاث تحيا فى هذا الفرد جنبا إلى جنب وتدهش المتصلين به وتبدو لهم مظاهرها كأنما هى سلسلة من المتناقضات فتراهم يصدرون على صاحبها أحكاماً غريبة طائشة فيقولون عنه انه غير متزن الاعصاب أو انه منافق أو انه مجنون فى حين انه مثلى ومثلك مجرد انسان !

وعليه فالماضى يتحكم فينا ومن حوادثه تتكون عواطفنا وانفعالاتنا ، والشهوة تتحكم فينا لان قوانين المجتمع وآدابه ترغمنا على سترها وكبحها ، ومزاجنا يتحكم فينا لانه نتاج اعصابنا ووراثتنا وتربيتنا وتقاليدنا . ومن اجتماع هذه العناصر تتألف شخصيتنا الرحبة المعقدة التى تحمل بين أطوائها جراثيم عدة شخصيات أخرى

ويقول فى ذلك العلامة فرويد «كلما أمعنت فى تحليل نفسى تبين لى أن فى عقلى ودمى عالم من الشخصيات . ولقد تمر بى أوقات أشعر فيها أن فى وسعى أن أكون جنديا باسلا أو نبياً عظيما أو شاعراً عبقريا أو متشرداً يضرب فى مناكب الارض . جميع هذه الشخصيات تعيش فى وتتقاتل وما سعادتى إلا فى أن احيا هذه الحيوات كلها وأنا جالس الى مكتبى فى غرفة مطالعتى الهادئة »

ويقول أستاذ علم النفس الفرنسى البروفسور أرنست دوبريه : « لقد دلتنى تجاربى على أنى إنسان متقلب غريب . فتارة أحس انى فاضل وتارة أخرى انى شرير بل أكاد أشعر فى بعض الاحايين انى فاضل وشرير فى نفس الوقت وان العاطفة الصالحة التى " امر بى الساعة لا تلبث أن تقترن بعاطفة سيئة وان العاطفتين تتجاوران وتتحدان فى منطق سرى يحيرنى ويذهلنى وتتكسر

حياله رغبة الخير التى ينصحنى باتباعها عقلى. فانا من عواطفى فى حرب دائمة أحاول أن أفهمها وأحكم الصلة بين أسبابها وارجع بهذه الاسباب الى مصادرها، ولو انى تهاونت فى هذا الجهاد لحظة واحدة لما أبصرت فى نفسى غير الظلام والفوضى »

نستطيع أن نستخلص مما تقدم أن حياتنا أشبه بالسيل الجارف غير المنظور وان إحساساتنا وميولنا كالمياه المتدفقة المختلطة المنحدرة من جوانب مجهولة لتتوزع فى طرق ومنعرجات متضاربة مجهولة أيضاً. وان شخصيتنا أشبه بطائر خرافى ينتقل من غصن الى غصن ومن جو الى جو وله فى كل غصن حياة خاصة وفى كل جو شقاء مستقل أو سعادة مستقلة فكأنما الكون بأسره مسرحه وكأنما ألوانه انعكست كلها فيه وحده فهو الذى يمثل الطبيعة وهو الذى يعبر بمتناقضاته عن محيطها الهائل البعيد الغور

و إذن فما هو موقفنا حيال فوضى نفوسنا. وماذا يجب ان نفعل كى نقف بجلاء على كل مايدور فى اخلادنا. وكيف نقر النظام فى أرواحنا. بل كيف نعيش بسلام وفينا مئات الشخصيات المتنافرة، والمجتمع يطلب الينا الظهور بشخصية واحدة متناسبة متزنة منطقية. بل كيف نعيش ونعمل فى رقى متواصل وأفكارنا وميولنا مشوشة غير متجانسة والعمل والرقى يفرضان على الفرد منا التوجه بقواه نحو غرض أو أغراض معينة لا تتفق بأى حال من الأحوال مع التشوش والفوضى؟

كانت الانسانية تهتدى فيما مضى بوحى العقائد ولكنها تسترشد اليوم بوحى العقل وحده وبما يقر العقل أنه صالح وصحيح سواء أكان قواعد اخلاقية أم آراء اجتماعية أم مذاهب علمية. فالعقل هو الذى أقام حضارتنا وهو الذى لا مفر من أن يقوم عليه بناء شخصيتنا. وليس من المنطق فى شىء أن نعتنق حضارة تستند إلى العقل ثم نحاول بناء شخصيتنا على مبادىء عواطف وعقائد ينكرها العقل.

وأول مايجب أن نفعله كى ننمى خصائص العقل فيناهو ألا نكتفى بالتعلم فقط بل يجب أن نشرب نفوسناحب الثقافة اذ التعلم جهاد فى سبيل الرزق والتثقف جهاد فى سبيل التفوق والكمال .

ومن الناس من يتعلم وينجح ويفوز بأعلى المناصب ثم يظل مع ذلك عبدا لنزواته ملـكا لغرائزه أجهل مايكون بحقيقة شخصيته وماينبغى أن يتخذ من مختلف التدابير كى يفهمها ويدرأشرهاويحسب حساب أسرارهاوتقلباتها .

أما ذلك الذى يقبل على التثقيف الشامل المطرد فمثله كمثل رجل ولد فى قصر عظيم الا ان كلا من أبواب هـذا القصر مغلق بقفل خاص فاذا لم يوفق الرجل الى صنع مفتاح لكل قفل وباب كان فى القصر كالاسير ولم يستطع أن يمتلكه وينعم بما فيه

والقصر هنا هو النفس البشرية والأبواب المغلقة أسرارها والمفاتيح هى المعارف وكل معرفة تفتح بابا وتكشف سراً وتمكن الانسان من بسط سيادته على نفسه وعلى كل ما يحيط به .

هـــذا هو معنى التفوق الذى تحققه الثقافة ، تفوق الانسان بعقله على الفوضى الشائعة فى شخصه وفى العالم .

ولـكن على أية قاعدة يجب أن تستند الثقافة كى تزهر وتؤتى ثمارها لاأتردد فى المصارحة أن هذه القاعدة هى الحرية . وأن شرط الثقافة الأول والأخير هو أن نحرر عقولنا من التقاليد والخرافات وأن نقدم على التفـكير الحر غير حافلين بما قد يصيبنا من نتائجه وأن نبتغى الحقيقة لوجه الحقيقة . أما اذا استبدت عقائدنا وتقاليدنا بعقولنا وعواطفنا وراحت تملى علينا نوعا خاصا من التفـكير والاحساس ، كان ذلك منا عبودية وتقهقرا وجهلا مستورا يحول بيننا وبين معرفة العالم وبالتالى معرفة أنفسنا

فينبغى أن ننشد الحرية المطلقة لأن الشخصية القوية هى الشخصية الحرة والشخصية الحرة هى التى تؤسس حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية الوطن

ومتى استطعنا أن نفهم أنفسنا بفضل الثقافة واستخلاصنا من ثقافتنا وحريتنا مبادىء ورغبات أردنا تحقيقها فى الحياة العملية وجب أن نتغلب فى الوقت نفسه على ميولنا الوضيعة وأهوائنا الشاذة وأن نسدد جميع قوانا نحو الغاية التى نسعى للوصول اليها . وهنا نحتاج الى القدرة على العمل والقـدرة على التنفيذ . والقدرة على المثابرة ، نحتاج الى خلق أى الى ارادة

ولا فائدة من الثقافة والحرية والعمل بدون ارادة عاقلة حازمة لا تهدأ ولا تكل

ولن تتكون هذه الارادة فينا الا بالتربية القائمة على أساس علمى . أى على الملاحظة والاستنتاج والاستقراء والمغامرة والاعتماد على النفس والشعور بالمسئولية والاستهداف للخطأ كأفضل طريق لمعرفة الصواب .

فالفرد الذى ينشأ هذه النشأة لا يكتفى باستظهار المعلومات وترديدها كالببغاوات بل يتصل بالأشياء اتصالا عمليا مباشرا يلاحظها ويحللها ويستنتج بواطنها من ظواهرها ، وهكذا يحس معنى الارادة ويتذوق لذة الحرية ، فاذا أقدم على التثقف أمكنه بنزعته الحرة أن يفهم شخصيته وحقيقة العالم وإذا أقدم على العمل والتنفيذ أمكنه بارادته أن يقتحم الصعاب ويذلل العقبات ويتفوق على ضعفه الغريزى

فالتربية العلمية الحرة فى سن الطفولة والحداثة ، والثقافة الواسعة الحرة فى سن الشباب والرجولة والشيخوخة ، والارادة المثابرة الحرة فى جميع أطوار الحياة . هذه هى العناصر التى تخلق شخصيتنا وتساعدنا على توجيهها وجهة معينة نافعة وتمكننا من احلال النظام فيها محل الفوضى والوحـدة محل التفرق والتوزع ، والنصر العملى الملموس محل التأملات العقيمة الباطلة

ورغم كل هذا فان هناك عنصراً آخر من الأهمية بمكان عظيم . عنصر خفى غادر يتحاشى الناس النظر فيه عادة والبحث فى شتى ظواهره . عنصر جبار

يقض مضاجعنا ويقلق راحتنا شبانا كنا أم شيوخا . عنصر يجب أن يسود العناصر السالفة والا امتنعت عن تأدية وظائفها ودب فيها الشلل . وهذا العنصر هو المسألة الجنسية

ونحن تجاه هذه المسألة أبدا فى حيرة وخوف واضطراب فى حين اننا لو نظمناها وفق مبادىء العقل والحكمة لساعدتنا على العمل وضاعفت من نشاطنا وانتاجنا

وأنا لست من أنصار الحرمان فى المسائل الجنسية ولا من دعاة التبتل ويقينى أن الحرمان لافضيلة فيه . وإنى لأوثر الانسان الذى يتمتع تمتعاً مشروعا ويعمل بنشاط على ذلك الذى يحرم نفسه ويعمل وهو كئيب ثم يزعم أنه قوى وأنه أفضل من سواه

وليس ثمة من شك فى أن من ينظم غرائزه الجنسية يشعر بالراحة والفرح ، والفرح يزيد فى قدرة المرء على العمل . أما كآبة أدعياء الفضيلة من المتلهفين المحرومين فعارض يمكن للميول الشاذة والأمراض العصبية ويقف حجر عثرة فى سبيل العمل والانتاج

وليس المهم أن تتبتل وتتزهد بل أن تكون لك قوة إرادية تستطيع بها الانصراف عن الشهوة والتحرر منها بمحض ارادتك عندما تشعر أنها سوف تضربك ، هذا هو الاستحقاق . وتلك هى القوة .

فاذا استعبدتك شهواتك فأسرفت فيها كان ذلك وبالا عليك وإذا استعبدك الحرمان كان ذلك وبالا عليك أيضاً

والواجب أن تحس بالحرية حيال الشهوة وأن تتوسط وتأخذ منها بالقسط العادل المشروع

وخير ما نختم به هذا المقال تلك العبارة التى طالما رددها البروفسور ارنست دوبريه على تلاميذه :

إن العامـل الأكبر فى تكوين شخصيتنا هو الحرية . وأن الفرد كالأمة لامجد له ولا حياة ولا رقى بدون حرية .

« فى المسئلة الجنسية أيضاً »

يعلق العلامة سيجموند فرويد فى أبحاثه النفسية الشهيرة أهمية كبيرة على دور الطفولة والحداثة ويقول ان الغريزة الجنسية هى الحافز الحيوى للانسان وهى التى تخلق فى الصبى عواطف وميولا مشوشة مضطربة أبعد ماتكون عن فضائل العفة والاحتشام .

فالصبى فى عرف فرويد ليس هو المخلوق البرىء الطاهر الساذج الذى نتوهم ، بل هو شيطان صغير ملء رأسه الأفكار والخيالات والعواطف الجنسية الحادة . وماحب الصبى لأهله وميله الى الطلاقة والمرح وتعلقه الشديد بأشخاص معينين سواء أكانوا من أقربائه أم من أصدقائه أم من أساتذته إلا أعراض يردها «فرويد» الى عوامل جنسية محضة لا تنفك تحاربها قوانين المجتمع وآدابه حتى تكبحها فتندس فى (العقل الباطن) ثم تأخذ فى الظهور وقتا بعد آخر فى شكل هوى ساذج أو احساس عنيف أو ميل شديد الى المرح أو نزوع الى الوحدة أو توق الى الحزن أو ولع بالتستر والكذب والنفاق مما يلحق أكبر الضرر بخلق الصبى ويؤثر فى أدوار حياته كلها . فالغريزة الجنسية القاسية بخيالاتها وصورها وماتولده هذه الخيالات والصور من تفاعلات نفسية خفية تعمل عملها السرى فى العقل الباطن . وآداب المجتمع الصارمة تحول بين هذه الغريزة وبين التكشف والارتواء فتتحول رغباتها عن طريقها الحيوانى الطبيعى ولا تجد متنفسا لها الا فى الميول والعواطف المريضة أو الشاذة التى تسمم وجدان الصبى وعقله وترغمه على النظر الى الجانب الجنسى من حياته وحياة الآخرين نظرة الخوف والهوس والعبودية والرياء .

فرغبات الصبى الجنسية المرتدة الى عقله الباطن تتجمع فى ذلك الحيز الضيق و تعقد هناك مؤامراتها و تجتذب اليها رغبات أخرى وأفكاراً أخرى ثم تتضخم و تنطلق فجأة وقد استحالت فى نفوس الصبيان الى عواطف مركبة مشوشة تبدو لنا ـ نحن الكبار ـ غريبة لأننا نجهل أو نتجاهل سرها ولا نود أن نعترف صراحة بأن مبعثها الغريزة الجنسية المحتجزة لفرط ما نخشى سلطان هذه الغريزة وحكم آداب المجتمع عليها

ويرى علماء التربية المعاصرون وعلى رأسهم الاستاذ فالون ومدام منتيسورى أن من واجبنا أن نمزق هذا الحجاب الجنسى الذى يسدله المجتمع وآدابه على شخصية الصبى . أن نحرر الصبى من طغيان الغريزة الجنسية التى تحتل عقله وجسمه وتبتليه بضرب من جنون الفكرة الثابتة

فمن واجب الأم فى البيت ان تلحظ تطورات شخصية ابنها وان تباعد جهد الطاقة بينه وبين المناظر والمشاهد التى قد تلهب فيه الخيال الجنسى وان تصرفه عن خلطة صديق معين يشعر من نحوه بميل طارىء يشوبه الاسراف وان تجتهد فى صقل ميوله الحيوانية وتحويلها عن مجراها الغريزى والتسامى بها إلى مختلف أنواع اللهو البرىء كأن تغريه بالاقبال على الألعاب الرياضية وسواها من العاب التسلية أو تقتاده الى الحدائق والمتنزهات لتعلمه كيف يتذوق جمال الطبيعة أو تدفعه الى مطالعة القصص الرائعة ذات الحوادث القائمة على الشجاعة والاستبسال وشتى الصور الشعرية المتصلة بحقائق الحياة أو تدربه على ممارسة الموسيقى أو التصوير أو أى فن من الفنون الجميلة .

والمهم أن تستطيع الوالدة أن تخلق لابنها جوا من الحرية والفرح يعيش فيه وألا تخشى عليه من الاختلاط بأعضاء الاسرة وأصدقائها من الفتيات كى لا يستحوذ على ذهنه خيال الجنس الآخر وكى يحس أن لا غرابة فى ذلك

الجنس ولاجاذبية شهوية مفعمة بالأسرار وكل هذا مع اقتران الحرية بالرقابة اللينة الحازمة على تصرفات الصبى وأعماله

ومتى شب الصبى وترعرع فمن واجب الوالد – كما ترى مدام مونتيسورى – أن يصارحه بجوهر المسألة الجنسية فيبسط له حقائقها بسطا وافيا ويحذره من انتقاضها وتفاعلاتها وغدرها ويفهمه أن المرأة مخلوق رقيق وضعيف فيه فتنة للرجل وفيه متعة وخصب وحياة ، ولكنه ايضا مخلوق يجب أن يحترم لرقته وضعفه ، ولكى يحصل الرجل عليه ويستمتع به يجب أن يستحقه عن طريق العمل والكفاح وتأسيس المستقبل الزاهر يمهد السبيل للزواج والحب المشروع

وكذلك ينبغى أن تفعل الوالدة بابنتها فلا تكتم عنها المزالق الجنسية التى لابد أن تنحدر بها اليها غوايات الشبان ، ولاماقد يترتب عليها من عواقب حسية ومعنوية ذات أثر فعال فى مستقبل الفتاة ومستقبل النوع .

والواجب أن تطلع الأم ابنتها على كل شىء ثم تطلق لها الحرية الفردية تلطفها الرقابة الحازمة الرشيدة أيضا .

أما المدارس — ولاسيما الثانوية والعالية منها — فمن المحتم — سواء للبنين أم للبنات — أن تنظم فيها الحصص الخاصة بمعالجة المشاكل الجنسية معالجة صريحة أساسها البحث العلمى المجرد كما هو الواقع اليوم فى المانيا وأمريكا

وقد طالعت فى مقال أخير للدكتور (فوشيه) وهو من أنصار هذه الآراء ومن كبار تلاميذ العلامة الدكتور (هرشفيلد) فى فرنسا أن المحاضرات العلمية المتعلقة بالشؤون الجنسية تلقى على الطلبة والطالبات فى معظم الكليات والجامعات الألمانية وأن بعض المدارس الثانوية فى ألمانيا وضعت فى صلب برامجها مادة تنص على وجوب تلقى تلك الدروس .

وهذه النزعة لاغرض لها الا محاربة النفاق الجنسى وتقوية الارادة فى نفس الفرد وتحريره من عبوديته لأعمق غريزة فيه والسيطرة على هـذه الغريزة وتذليل قواها الخفية والتسامى بها الى مايعود بالخير عـلى الفرد والمجموع .

رابندرانات تاغور

يمثل رابندرانات تاغور شخصية الفنان الكامل أبلغ تمثيل ، فهو شاعر وقصصي وموسيقي ورسام . وقد اشتهر فى مصر كشاعر فقط ولكن شهرته كروائى مجدد عظيم أصبحت من الأمور المعترف بها فى مختلف الأوساط الأدبية فى أوربا وأمريكا

فتاغور قصصي كبير . ولكن ليس على النسق الأوربى ولا وفق الأساليب التى ابتدعها كتاب القصص فى الغرب وجرى عليها معظم أدباء العالم . إنه يكتب القصة كسواه . ولكن قصته تتفجر من ينبوع شعرى يحمل طابعه الخاص ، ونغمته الفردة ، ووحيه الهندى والانسانى المستقل .

والقصة التى يضعها تاغور تمتاز على الدوام بعنصر (الحلم) الذى يكاد يكون مفقوداً من القصص الغربية .

فالحلم هو القاعدة الموسيقية لقصصه ومبعث التخيل الشعرى الذى يفيض علينا بشتى ألوان العواطف والشخصيات

وليس ثمة شك فى أننا نلمح هذا العنصر فى روايات بعض كبار كتاب الروس كفيدور دستويفسكى وإيفان ترجنيف وأنطون تشيخوف ولكن واحداً من هؤلاء لم يحاول أن يجعل من (الحلم) وحده مادة فنه وطريق إلهامه ودعامة قصته .

والحق أن الفن القصصى الروسى مزيج من الحلم والحقيقة . من الشعر

والواقع ، من السماء والأرض ، وهذا سر عظمته . غير أن القصصى الروسى حين يعتزم وضع قصة يفكر فى الحقيقة الواقعة قبل أن يفكر فى اطارها الشعرى وتبدوله الحياة عارية مجردة تتناوبها الأحلام والرؤى على اعتبارها جزءا متمما للحقيقة لامبعث الحقيقة نفسها .

ومن ذلك كانت القصص الروسية برغم الشعر الذى تفيض به قصصا واقعية شديدة الارتباط بمظاهر الحياة العاطفية والفكرية من ميول عنيفة وغرائز مضطرمة خفية ، وآراء ومبادىء وتأملات وفلسفات .

فالروائى الروسى يرغب فى تصوير الحياة تصويرا مباشرا يضفى عليها حلة رائعة من الشعر والحلم

ولكن تاغور يريد قبل كل شىء أن يحلم وان يسترسل فى حلمه ويسبح فيه كشاعر متأمل ثم يدع صور الحياة واشكالها تنبثق من تضاعيف ذلك الحلم وتخرج حاملة ضبابه وصفاءه ورقته وخياله وشعره

فتاغور شاعر إذن ورواياته أشبه بقصائد شعر منثور . أو أشبه بالسمفونيات الموسيقية يحملك على اجنحتها وتحلق بك فى عالم كله نغم وطرب

ولكن المعجزة التى حققها تاغور هى انه استطاع أن ينتهى من الحلم الى الواقع . وان يعثر فى مجاهل النفس البشرية على تلك العواطف الأبدية التى تتصل من تلقاء نفسها بالشعر والحلم وأن يستخدم فى التعبير عنها أسلوبه الذى يتفق وطبيعتها أى أسلوب الشعر والحلم

وهكذا هو يقرر الحقيقة بروحه وخياله بدل أن يسجلها ويحصيها بعقله

وأكثر ماتتناول ريشته عواطف الرحمة والطيبة والصداقة والتضحية والحب وهذه العواطف شعرية بطبيعتها لذلك هو لا يقبل عليها بعقله كمعظم روائيى الغرب ، لايشرحها ولا يحللها ولا يتبسط فى استيضاح أجزائها بل

يدع أعمال أبطاله ترمز فقط اليها ، ويدعك تشعر بها حيه نابضة فى قلوبهم يعيشون بها وحدها كأنما هى كل فضيلتهم وكأنما هم على هـذه الأرض ملائكة أطهار .

هذه الطريقة الفنية تجعل من أبطال تاغور — فى آن واحد — مخلوقات شعرية وإنسانية . وتجعل من قصصه كما أسلفنا قصائد نثرية مطولة أو سمفونيات موسيقية .

غير أن هناك ظاهرة أخرى ضاعفت إعجاب الغربيين بهذا الفن الروائى الطريف وهى إن العواطف الانسانية الشعرية التى نلمسها فى جميع قصص تاغور يعرض لها الشاعر فى رقة وعذوبة وشبه احترام وتمجيد وخوف كأنما هى شىء مقدس يخشى ان تدنسه يداه — ثم يتسامى بها جهده حتى يصبح أبطالها انصاف آلهة تغريناً بالحياة وفق مثلها الأعلى

ومن هنا كان فن تاغور أروع الفنون (المثالية) فى هـذا العصر . يعلمنا كيف نحب . وكيف نخلص . وكيف ننكر مصالحنا وذواتنا فى سبيل ان نجرى ابتسامة سعيدة على ثغر انسان

هـذه القوة فى الحب هى طابع الشاعر . بل هى رسالة الهند إلى العالم بوجه خاص ورسالة شعوب الشرق بوجه عام

وقد يزعم البعض ان هذه القوة باطلة وخيالية وأنها علة انحطاط وسقوط هذا الشرق الحالم الوسنان ولكننا نقول ان قوة الحب كما يفهمها تاغور هى أيضاً قوة التضحية وان قوة التضحية هى سبيل الحياة والحرية وأن لا حياة ولا حرية للأفراد والأمم بدون حب صحيح يستحيل عند الاقتضاء إلى تضحية كاملة .

ومما لا يقبل الريب أن الحياة الرحبة المكتملة الحرة لا تكتفى بقوى الحب

والتضحية . وانها فى حاجة لقوى مادية مكملة أخرى ، كالعمل والإنتاج والكفاح والاهتمام بشؤون البدن بحيث يرقى بنسبة الروح ويستطيع أن ينعم عن طريق المادة بحياة سعيدة موفورة الحاجات كما تنعم الروح فى دائرتها المعنوية بقوى الحب والتضحية .

وهذا مايريده تاغور للشرق . يريد الا ينصرف الشرقيون الى الحب ويهجروا العمل . يريد الا ينصرفوا إلى الروح ويهجروا المادة . يريد الا يتشبثوا بحضاراتهم الشرقية الروحية ويتبرموا بالحضارة الغربية المادية . يريد ألا يتعلقوا بماضيهم العتيق وينكروا الحاضر بعلومه ومكتشفاته وصناعاته وفنونه . يريد أن يلقح الشرق بالغرب والغرب بالشرق وان يجعل من شتى الحضارات قوة ثقافية واحدة مشتركة يمكن ان ترضى مختلف مطالب الانسان ونزعاته فى ظل الحب المتبادل المشترك وما يأمر به من حرية وعدالة ومساواة لجميع الأفراد والشعوب

وهذا هو الفارق بينه وبين غاندى — مقارنة

فالأول لاينكر الجهود البشرية أيا كانت ولا ينفك ينظر الى الإنسان كوحدة . ويجتهد فى أن ينتفع بكل حضارة وثقافة وكل أثر فكرى أو روحى صدر عن الإنسان .

والثانى أى غاندى يقتصر فى دعواه الثقافية على الروحانيات ويحاول أن ينتقص من الحضارة الغربية بدل أن يكملها وأن يستبدل بها حضارة روحية فطرية بدل أن يمزج بين الأثنتين

وأنه ليخيل إلينا أن غاندى قد انساق إلى ذلك بحكم زعامته . وأكبر الظن أنه لم يتجه بالهنود نحو الحضارة الغربية ولم يعترف صراحة بثمرات جهودها خشية أن يثير عليه تقاليد الشعب الدينية الروحية أو خشية ألا يفهمه

سواد الشعب ومخافة أن ينعكس الغرض وتسرف الجماهير فى فهمه وتأخذ بكلامه دون تمحيص فتقبل على أساليب العيش المادية وضروب الترف الأوربية يتباهو قد اتخذ من مقاطعة هذا الترف الأجنبى سلاحا وطنياً له وجعل من فضائل الزهد والتقشف سبيل الاستقلال والحرية .

ولا ينبغى أن ندهش نحن لهذا . فالزعامة تكيف الزعيم وغاندى كان زعيما وطنيا يخاطب الهند قبل كل شىء ويعالج الجماهير الهندية وان يكن فى رسالته هو الآخر من الحب والاحتمال والصفح والتضحية ما يستضىء بنوره العالم

ولكن هذه المهمة ليست مهمة تاغور . أنه شاعر . بل مفكر وأديب وفيلسوف . تعدو نظرته أفق بلاده وتشمل الكون دفعة واحدة

ان تاغور يخاطب الانسانية قبل ان يخاطب الهند لأنه فنان . وغاندى يخاطب الهند قبل أن يخاطب الانسانية لانه زعيم وطنى

وليس معنى هذا أن تاغور ينكر الهند بلاده أو انه اقل وطنية من زعيمها غاندى أو أقل من غاندى إحساسا بالآم شعبه وتعبيرا عن آماله وعبقريته

وهل هناك خدمة وطنية يؤديها رجل لشعبه اسمى وأعظم من أن يحمل الى العالم باسم هذا الشعب رسالة روحية مادية كاملة تدعو لخير هذا العالم ؟

لقد كان الوزير الألمانى شترزمان يقول : « كنت كلما طالعت اعمال ذلك الهندى العبقرى ازددت إيمانا بنجاحنا النهائى فى وضع قضية السلام العالمى على أسس ثابته وعادلة »

فاذا كان يمكن لأعمال تاغور ان تحدث مثل هذ التأثير فى قلوب ساسة من طراز شترزمان وعقولهم فقد أدى تاغور واجبه وخدم الهند بخدمته أوربا والعالم

وانى لأتساءل متى كان معنى الوطنية ان أخدم وطنى فى حدوده فحسب ؛ والا احاول ان اجعل من هذا الوطن رائد العالم نحو حياة خصبة جديدة

وانى لم اسهب فى الكلام عن هذه الناحية من عبقرية تاغور إلا لأن نفرا من الكتاب فى مصر اتهموا الرجل بضعف الوطنية كأن الانسانية تنفى الوطنية وكأن على كل فرد من افراد الأمم المستعبدة ان يشغل نفسه بمصير قومه فقط وان يكون من العجز بحيث لا يستطيع ان يصل — فى الغاية الأبدية الكبرى — بين أمته وغيرها من شعوب الارض

الا ان هذه الظاهرة لهى الدليل الساطع لا على وطنية تاغور الرحبة السامية فقط بل على قوى الحيوية العظيمة المدخرة فى صدور أبناء جنسه أيضا والتى تسمح لهم - وهم فى صميم نضالهم السياسى - بالتفكير فى مصيرهم وفى مصير الغير على السواء

بل انه ليلوح لى ان توفر هذه الفضيلة المزدوجة فى الشعب الهندى قد جعلته يحتكر العظمة الروحية لنفسه اذما من شعب أوربى استطاع وهو فى مستهل حركة وطنية ان ينتج عبقريا انسانيا كتاغور وأن يهتم باذاعة رسالة إنسانية وهو يكافح ليتحرر ويعيش .

ثم أليست الجهود التى يقوم بها تاغور فى طوافه حول العالم ودعوته الى الوئام والسلام وتعريفه الأمم بفلسفة الهنود وشعر الهنود وثقافة الهنود خير دعاية للهند وأكبر مساعد لها فى كسب عطف الشعوب على قضيتها الوطنية ؟

ان اسم تاغور لا يكاد يتردد فى بلد حتى يذكر اسم الهند وتذكر قضيتها المقدسة وجهادها المطرد المبتكر العجيب فى سبيل استرداد حريتها واستقلالها .

والواقع ان الرأى العام الدولى يفهم الشاعر الداعية أو الأديب أو الفنان أكثر مما يفهم السياسى

إذ الشاعر يخاطب عواطف الناس جميعا أما السياسى فلن يحسن غير مخاطبة أشباهه

والشاعر أو الكاتب الداعية ان كان عظيما استطاع أن يقنع الجماهير بضرورة السعى لتحرير بلاده لا لمصلحتها وحدها بل لمصلحة العالم .

وهـــذا مايفعله تاغور . فهو يكشف للغرب عن عبقرية بلاده وعن الكنوز المودعة فى ثقافتها والتى لايمكن أن يستخرجها أبناؤها ويضيفوا الجديد عليها وينفعوا بها الناس الامتى تحرروا

فكأنه يدافع عن الهند لالتنعم بحريتها فى افق ضيق محدود بل لتتمكن بواسطة هذه الحرية من انعاش ملكاتها الدفينة الخالقة والمساهمة بنصيبها الطريف فى الجهود العلمية والثقافية المشتركة التى تتألف منها الحضارة

ومن لنا نحن برجل كتاغور يجوب اطراف القارتين داعيا لعبقريتنا شاديا بماضينا ، شارحا فضائل عنصرنا ، معرفا الناس بجهودنا مبيناً ما غمض من شخصيتنا ، رافعا اسم هذه البلاد فى كل عاصمة وكل قرية ، معبرا عن إرادة مصر التى حضرت العالم ، فى الحياة والعمل حرة مستقلة لخير نفسها وخير العالم . . .

نحن مجهولون من الامم المتمدينة . بل نحن ضحايا الدعايات الزائفة والخيالات الكاذبة ، والمعلومات الطائشة ، لايعرفنا أحد . ويكاد لايهتم بنا اليوم أحد ومن واجبنا أن نندمج ما استطعنا فى الأسرة الإنسانية المتحضرة ، وأن ننظم الدعاية السياسية والدعاية الأدبية الثقافية وأن نقرن بين الاثنتين بحيث يتمشيان معاً ويكشفان للرأى العام الدولى عن حقيقة جهادنا الوطنى وجهادنا الثقافى .

وليس هو الشاعر أو الكاتب أو الفنان الذى يعوزنا للقيام بحركة الدعاية الفكرية .

ان فى مصر ادباء نوابغ افذاذ يحسنون لغة أو عدة لغات أوربية . ولهم

ثقافة شرقية وغربية واسعة شاملة . فلماذا لاتنتفع الأمة بهم . ولماذا لاتفكر هيئاتنا فى انتخاب فرد منهم أو عدة أفراد تزودهم بالمال اللازم وترسلهم للدعاية الثقافية فى مختلف البلدان يعملون بجوار الذين عهد اليهم بالدعاية السياسية ويؤيدونهم ويكملون جهودهم ويمثلون الناحية المعنوية الانسانية من شخصية مصر الناهضة ؟ . . .

الحق أننا مقصرون فى هذا الميدان تقصيراً لانعذر عليه . ومادمنا نعيش على هامش الحياة فالحياة لن تحفل بنا . وأول واجباتنا أن نتكلم . بل ان نصرخ ملء صدورنا بحيث لاتسمع صرخاتنا فى مصر وحدها بل تترددو تتجاوب اصداؤها فى شتى انحاء العالم !

* * *

جالت بذهنى هذه الخواطر وأنا أطالع مجموعتين من قصص تاغور نقلهما إلى العربية الاستاذ عبداللطيف النشار .

وقد اطلق على المجموعة الاولى هذا العنوان « وكيل البريد وقصص اخرى » وعلى المجموعة الثانية « خالتى وقصص أخرى » . وهى قصص صغيرة تقوم على تلك العواطف الشعرية المتأصلة فى النفس البشرية والتى يبدع تاغور فى رسمها كما أشرنا .

وقد وضعها الاستاذ النشار فى اسلوب عربى سهل رقيق متين شعرت انه يتفق تمام الاتفاق وروح المؤلف واسلوبه وان كنت لم اتمكن من مقارنة القصص بالاصل الذى نقلت عنه .

ومما راعنى فى هاتين المجموعتين بوجه خاص قصة (وكيل البريد) وهى مأساة رجل صادفه الحب الصادق والاخلاص الصحيح الذى قدلا يعترض الانسان فى حياته غير مرة . صادفه ممثلا فى شخص فتاة ساذجة بريئة طاهرة

فلم يفهمه حق الفهم ولم يقدر الفتاة حق التقدير ؛ بل اعرض عنها ولم يأبه لها وبعد أن هجرها وانصرف أحس بقيمة قلبها العظيم فندم وهم بالرجوع اليها ولـكن الباخرة كانت قد اقلعت به والوقت قد فات . . .

وهكذا كانت السعادة قاب قوسين منـه فتركها تفلت من يده وجعل يلتمس لحماقته الاعذار . . .

هذه القصة العادية تؤثر فى قارئها ابلغ تأثير وافجعه فقد كتبها تاغور كما كتب القصص الاخرى باسلوبه الصافى البسيط الذى يقدس العواطف الرقيقة ويلمسها لمسا خفيفا ويرمز اليها من بعيد دون ان يحللها ويفضحها .

ونحن نشكر للاستاذ النشار هذه الخدمة الأدبية الخالصة ونوجه انظار الجمهور إلى اقاصيص تاغور التى لا تعلمنا كيف نحيا فحسب بل تعلم ادباءنا كيف تـكتب القصص الصغيرة الخالدة !

أناتول فرانس

من الظواهر المألوفة فى أوربا أن العظيم لا يكاد يموت حتى يسرع الباحثون الى مراجعة أعماله ونقدها النقد الصارم المر وتحديدها تحديدا نزيها لا تقف فى سبيله اعتبارات الصداقة أو المصلحة أو الخوف التى كانت تغل عقول النقاد أيام كان العظيم حيا واسع النفوذ مرهوب الجانب يحيط به الأنصار والمتملقون يذودون عنه وعن أعماله ابتغاء العيش فى كنفه والظهور على حسابه واستجداء بعض ما يفيض عليـه من شهرة ومجد

وهذا ماوقع لأناتول فرانس .

فهو لم يكد يودع هذا العالم حتى خرج كتاب الشباب من صمتهم ومدوا مخالبهم وتألبوا عـلى جثته كما تتألب كواسر الطير على الفريسة العاجزة . ومازالوا به نقدا وطعنا وتجريحا حتى أحالوه الى هيكل عظمى نخر .

هم فريق من الأدباء الفرنسيين المجددين أطلقوا على أنفسهم اسم الـ Surréalistes أى أنصار ماوراء الحقيقة . وليس موضوع هـــذا المقال التحدث الى القارىء عن مـذهبهم واختلاف نظرتهم الى الأدب عن نظرة أناتول فرانس وغيره بل موضوعنا الأسباب التى من أجلها يصدر اليوم معظم كتاب الشباب فى فرنسا وعلى رأسهم هذه الجماعة حكما قاسيا على مخلفات أناتول فرانس الأدبية ومكانته من الأدب العالمى .

فلننظر فى دعواهم اذن ولنتناول الرجل بنظرة فاحصة . ماذا نرى ؟ ومن هو أناتول فرانس فى عرفهم ؟ وكيف يبدو لهم ؟ هو رجل عابث مستهتر يؤثر الاستمتاع بالحياة استمتاعا مجردا على التألم لحظة فى سبيل ادراكها الادراك الشامل الصحيح

تستوقفه فكرة غريبة أو زهرة جميلة أو غادة فاتنة أو نكتة مستملحة فيهلل ويعجب ويقنع من الوجود بسحره الظاهري دون أن يكلف نفسه عناء النفاذ الى الجوهر والاهتداء إلى حقيقة خفية جديدة .

وماذا يهمه من أمر العالم والسعى لاكتناه سره والتماس الحلول لمشاكله والأخذ بيد الانسانية نحو مثل طريف أعلى .

لقد هبط بالدنيا كما يهبط الجواب بالبلد الغريب ، يمتع الطرف بمحاسنه ويحاول بعض الشيء التعرف إلى أخلاقه وعاداته ، ثم يتزود منه بنظرة قبل الرحيل ، إذ بلاد الله واسعة ، والعالم جم المشاهد وافر اللذات ، والحقيقة موزعة ههنا وهناك ولا سبيل الى وحدة الفكر أبدا .

إن شخصية أناتول فى زعمهم قوية للغاية وضعيفة الى أبعد حد ، ذات حافظة متنبهة وذكاء متقد واحساس عميق بالجمال المادى ، جمال الأوضاع والاشكال والأساليب . ولكنها ضيقة الخيال جافة العاطفة لا تعرف وثبات الوجدان الجامح ولا طفرات الغريزة الملتهبة الخالصة .

لذلك هو يفهم كل شيء بعقله ولكنه لا يستطيع أن يخلق شيئا بخياله وعاطفته .

لقد طالع الكتب جميعا فاستظهر الآراء والنظريات جميعا . وساعده احساسه بالجمال فنظمها ونسقها فى أحسن اسلوب واسطع عبارة فكان ناقلا ماهراً ومرددا فذا لخواطر الآخرين

ولو انه كان عبقريا صحيحا لاغتذى بتلك الافكار وأضافها إلى مادته الخاصة وابتدع منها لنفسه والعالم أدبا جديدا أو فكرة مستحدثة أو حلما من احلام الاصلاح والتطور التى لا ينفك الناس يطالبون بها ويقدسون العظماء من أجلها ويتبعونهم مستشهدين باسمين .

ولكن أناتول كانت تنقصه حرارة العاطفة وخصوبة التخيل وبعد التصور واتساع مدى الحب الانسانى .

وانى له أن يحب سواه وهو لا يتألم بل ينصب نفسه عدوا للألم ناقما على المتألمين يسميهم مرضى لانه لا يفهمهم !

ولو انك حللت تاريخ حياته لما ظفرت بأزمة نفسانية واحدة كتلك الأزمات الكبيرة التى تجتاح حياة العظماء فتكشف لهم عن دخيلة نفوسهم وتقربهم من نفوس الآخرين وترغمهم على التطلع الى الآفاق المترامية ، آفاق ماوراء الواقع وما وراء الألم وما وراء الحياة والموت .

لقد اذهلت المعارك الفكرية عقل أناتول فشغل بها عن معارك الحياة

كان ولوعا بالأدب القديم ، وتقاليده المتوارثة ، وطابعه المتزن واتساقه ومنطقه ونصوعه . فآثر العيش فى الماضى وفضل أن يحذو حذو السلف الصالح على أن يضيف الى ميراث العقل البشرى خلاصة روحه وصفوة آماله وأمانيه .

استهواه عبث (رابليه) وتشكك (مونتانى) وتهكم (فولتير) وسحر (رينان) وصفاء فلاسفة الاغريق وأدبائهم فامعن فى قراءتهم وتتلمذ عليهم وطاوعهم واستسلم لهم فافلتت منه الحياة الكبرى وضاعت فى غمرات هذه الافكار . واصبح الرجل مزيجا من هؤلاء . يرى بعيونهم ويفكر بعقولهم ويحس بوجداناتهم فقامت بينه وبين مظاهر الكون حجب من آرائهم الخاصة وطرائقهم فى البحث والتفكير

ولقد ذكرنا أن العاطفة الخالقة كانت فاترة في صدر أناتول فهو اذن لفتور عاطفته وعدم استطاعته الاتصال عن طريقها بالناس والعالم آثر الانصراف الى التفكير ودراسة الناس والعالم بواسطة الكتب

ولكن النفس البشرية هي التي تهدي صاحبها الى الحقيقة العامة ، أو الى شبه الحقيقة العامة ، أو الى حقيقته المستقلة التي يحاول ان يجعل منها حقيقة صالحة عامة

اما الكتب فسلسلة من أطياف الحقائق الغريبة الدخيلة التي لا آخر لها . هي صحراء لاتقع العين منها إلا على سراب الحقيقة وسراب الجمال

وأناتول اهتم بالكتب وأهمل نفسه . اهتم بالثقافة وأهمل الانتاج الشخصي العميق . لاذ بخيالات سواه وآراء سواه ، وجعل من ذهنه مسرحا لخواطر الغير ومعرضا لفنون الأجيال الغابرة وآدابها

وتولد فيه من جراء الغلو في المطالعة . والغلو في التثقف . والغلو في استعراض آراء مفكري الانسانية ضرب من العبث بالأفكار والتشكك فيها والسخرية منها جميعا

شاهد مذهب الأول ينقض عقيدة الثاني ، وفكرة هذا تهدم مبدأ ذاك ، فخيل اليه أن العقل البشري خدعة كبيرة . وان مجهوداته المتعاقبة ليست سوى رياضة عقلية مسلية ، وانه أداة لهو ارستقراطي ووسيلة عظيمة من وسائل اللذة والاستمتاع

وابلغ دليل على هذا تلك المأدبة الشهيرة التي رسمها في قصة (تاييس) فقد اجتمع الفلاسفة حول المائدة واخذوا يتطارحون النظريات . كل يتعصب لرأيه ويجتهد في الذود عنه غير حافل بالوصول الى الحقيقة قدر ما هو مأخوذ بلذة الجدل العقلي

فالفكر يبدو لأناتول كمثار للجدل فقط ، والمفكر انسان خاضع لأهوائه وميوله ، والحقيقة الفردة الخالصة لا وجود لها ، وكل حقيقة تحتمل الشك والتأويل وتقبل الهدم من اساسها . بل ان عمل المفكر هو فى هدم الآراء ما استطاع ، والارتياب الدائم فى صحتها ، لا لأحلال حقيقته الخاصة محلها بل لاقرار بطلان الفكر البشرى وعجزه عن حصر شتى النظريات فى اية حقيقة جوهرية واحدة . .

تلك هى نزعة اناتول فرانس المتمثلة فى كتابه (آراء جيروم كوانيار) والتى انتهت به الى مهاجمة كل شىء : الاخلاق والدين والقضاء والتشريع والوطنية والمحبة والاخاء العالمى .

لم تثبت أية فضيلة تحت لفحات نقده الحار .

لم يستقم أى نظام حيال تهكمه المر ولم يحترم أى مجهود بذلته البشرية بالدموع والدماء

هزأ بكل شىء وكان أشبه بشيطان عليم بكل ما فى العقل الانسانى من نقص طلع على الناس بغتة واستوى على جمجمة البشرية وجعل يرقص ويقهقه ويهذى ثم جن جنونه فسحقها بقدميه الغليظتين سحقا !

انه فوضوى ، لفرط ما عالج الأفكار انكر الفكر ولفرط ما أرشدته الافكار الى مواطن الضعف فى النفس الانسانية انكر النفس ويئس من اصلاحها

وعبثا تحاول البحث عن اسرار هذه النفس وتطوراتها فى قصة من قصصه فهو لا يؤمن بوجودها وهو يرد الاحساسات والانفعالات الى أصل ظاهرى واحد ، الى غريزة البقاء وشهوة الجنس التى تلازمها . اما المنازع السامية كالقدرة على الالم والقدرة على التضحية والقدرة على البطولة ومحاولة الفرد التخلص من الحيرة المتأصلة فيه تجاه لغز الكون بتطلعه الى ادراك قيمة

الوجود وسر الخالق ومعنى الموت. فاشياء قد يعترف أناتول بوقوعها ولكنه لايدين بها. هى مظاهر قوة وهو لايهوى غير مظاهر الضعف، لذلك يستبعدها من قصصه فتخرج ابطاله شوهاء ناقصة فاترة، اجساما بلا أرواح

وحينما يروقه رسم بعض هذه المنازع السامية يسرع عقله الساخر فيسمم ينابيعها

ان الراهب الذى احتمل فى سبيل ايمانه شر صنوف الآلام لايلبث أن يخلو (بتاييس) حتى تستيقظ فيه الشهوة فينسى ربه. وتاييس التى آمنت على يد هذا الراهب لم تؤمن ولم تودع الترف والدعارة وترضى عذاب السير حافية فى الصحراء الا لأن الراهب كان ذا وجه جميل . . . .

وقد تكون هذه حقائق ولكن عيب أناتول أنه لايرى فى العالم غيرها. لايرى غير هذه الحقائق القائمة على الغرض والتضحية الكاذبة الصادرة عن اللذة والمصلحة. اما التضحية البريئة واما البطولة الخالصة النزيهة فلا اثر منها فى اعماله.

والفلسفة التى تلمحها فى تواليف أناتول - ان كان له ثمة فلسفة - هى أبسط الفلسفات وأقربها إلى العقل العادى. فهو يقول ان الفرد عبد ميوله وشهواته ولا سبيل له الى التحرر منها، وان اهواءه تتحكم فى عقله وتفسد صحة تفكيره، وان غرائزه لاتنفك تنزل به إلى حضيض الحيوانية، وان عزاءه وخلاصه انما يكونان فى الفن، وفى الفن وحده.

فالفن أو الجمال هو الذى يصقل تفاعلات الغريزة ويهذب من وسائل اللذة الحسية. والبحث عن الجمال واللذة الحسية يجب أن يكون غاية الفرد المثلى يسعى اليها ولو على انقاض الأخلاق وانقاض كل نظام اجتماعى.

ولكن الاغلبيات الساحقة لا تقدر الجمال، والفن عزيز المنال صعب

عليها فهمه ، واللذة الحسية تخيفها بحكم الاوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية والعرف الشائع ، لذلك يكره أناتول الاغلبيات ويحمل على الديموقراطية ويزدرى سواد الناس ويتعالى عليهم ويسخر من جهلهم وسخفهم ويهزأ بجهودهم العملية اليومية البعيدة عن روح المنطق ، الحذرة الوجلة أمام اللذة ، الناظرة الى الجمال والفن كعناصر كمالية دخيلة .

وهذا الشموخ المتهكم المشوب بكراهية دفينة يولد فيه ضربا من القسوة على الآخرين ، قسوة نافرة مستوحشة تجفف وجدانه وتخمد فيه الشعور بالرحمة وتبتليه بالغلاظة والاثرة والجمود .

لقد قال فى عرض مقال له كلمة تميط اللثام عن حقيقة شخصيته وهى : « ان أعمال الانسان غير جديرة الا بعاملين السخرية أو الشفقة »

ولكن السخرية تنفى الشفقة ، ومن يسخر من سخف الناس وجهلهم يسخر أيضاً من مصائبهم وآلامهم فلا يعتقد صدقها ولا يستطيع بالتالى ان يرحمهم .

الرحمة ! الرحمة الواسعة ، ذلك الكنز الالهى الرائع الذى يستمد منه العبقرى غذاءه ويستلهمه فنه ويفهم بواسطته الغير هو الذى كانت تفتقر اليه روح أناتول فرانس .

لقد عاش فى الماضى ولم يحب الانسانية قط بل أحب نفسه فانعدمت الصلة بين فنه وبين الحياة !

***

بمثل هذه الصرامة يحكم معظم كتاب الشباب فى فرنسا اليوم على من كان بالأمس السيد والزعيم

وقد يكون فى حكمهم كثير من المغالاة ولكنا حاولنا أن نبسط صفوة

آرائهم ليعلم المصريون ان الاحترام الواجب لذكرى العظماء لا يقعد بالفكر الاوربى عن فحص أعمالهم فحصا دقيقا وتحديد مركزها تحديدا صارما وان استحالت شخصية العظيم بعد ذلك الى شخصية انسان عادى

انهم يضحون بذكرى عظمائهم فى سبيل الحقيقة

وهذا هو الاخلاص الصحيح للفكر وهو طريق التطور والتجديد فى الآداب والعلوم والفنون .

فلسفة وتحليل

من ظواهر العقل العربى انه مغرم بالحكمة ، ولوع بالافكار الثابتة العامة ، تجرى الحياة عليه تجاربها فيمعن النظرفيها ثم يبرزها على أيدى كتابه وشعرائه سلسلةمن المواعظ والارشادات والحكم فى أبيات شعرية قصيرة أو كلم جامعة .

فهو يحس الحياة ويفهمها ، ولكنه بدل أن يرسم كل جزء منها رسماً دقيقا شاملا ، يختصر الطريق فيعبر عنها تعبيراً اجماعياً فلسفياً .

فأنت تقرأ قصيدة لشاعر عربى فلا تحس انه قد تخير عاطفة من العواطف الانسانيةوأرصد جهده على وصف أطوارها ومنازعها وصفاً أمينا يشمل الأجزاء والتفاصيل بل تراه يسبح فى اجواء شعرية مختلفة ويقفز من احساس الى آخر وهو فى تنقله المطرد بين الميول والاهواء يصعب عليه متابعة عاطفة معينة وتأديتها التأدية العميقة الوافية .

وبما انه يعجز عن رسم العاطفة رسما كاملا دقيقا ، فهو يكتفى باشعارك بالنتيجة الفلسفية العملية التى أحدثتها فى نفسه تلك العاطفة ؛ وهذه النتيجة تتمثل فى البيت الجامع أو البيتين أو الثلاثة بالنسبة للشاعر وفى الحكم والكلم الجامعة بالنسبة للناثر . وهذا هو الفارق بين أدبنا والأدب الأوربى

فنحن نختصر العواطف ونبسطها ونحيلها كتلا جامدة من الآراء العامة والقواعد الاخلاقية الثابتة . وهم يدرسونها درسا مستفيضا ويرسمونها رسما

كاملا حيا بحيث يستطيع القارىء الهبوط إلى أبعد أغوارها ، والوقوف على أخفى دقائقها ، والاحساس بجوهر طبيعته ممثلا فيها . فنزعة الادب الشرقى فلسفية ونزعة الادب الاوربى تحليلية .

ولكن الفلسفة رجع صدى الحياة وخلاصة تجاريبها أما التحليل فالحياة نفسها . ونحن أحوج مانكون لتغذية أدبنا بروح التحليل لنصل بينه وبين الحياة الشاملة .

وليست العبرة فى أن نستخرج من العاطفة حكمة فلسفية بل العبرة فى أن نصورها تصويرا تحليليا صارمايضىء مجاهلها القصية ويكشف لنا اللثام عن حقيقة شخصيتنا .

وهكذا نفهم انفسنا ، ونعرف كيف تتحرك ميولناوغرائزنا ، ونستطيع أن نحكم العقل فى تصرفاتنا ونسمو الى قمة الفكر والفلسفة عن طريق معرفة الحياة

فالآراء والمبادىء والحكم والمواعظ ينبغى أن نستخلصها من تحليل العواطف ودراسة الحياة لاأن نصطنعها اصطناعا ونحن لاندرى أقائمة هى على الحقيقة أم منبعثة من خيالات الشعراء والكتاب .

وأنا أرى أن تجديد الادب عندنا ليس فى أن نغلب النزعة التحليلية الواقعية على النزعة الفلسفية الخيالية بل فى أن نوفق بين النزعتين فنحتفظ بشخصيتنا ونتصل فى الوقت نفسه بحقائق الحياة

إن تقليد الادب العربى عبودية وتقليد الادب الاوربى عبودية أيضاً. والاستقلال الصحيح فى الانتاج والخلق هو أن نبتدع ادبا شرقيا وانسانيا .

ولكن هذه الانسانية فى الادب لن نظفر بها إلا اذا تعلمنا أساليب التحليل العميق والرسم الصادق الحى على أيدى كبار كتاب أوربا .

وتلك هى فائدة الثقافة .

النقد في مصر

يقول الناقد الالمانى الفريد كير « كل نهضة فى الادب اذا لم ترافقها نهضة فى النقد تباطأت فى سيرها وجمدت فى طريقها ودبت فيها عناصر الاضطراب والفوضى واستحال على الجمهور أن يشعر بها شعورا قويا فعالا يؤثر فى عقليته وثقافته ونظرته إلى الحياة .

والاديب بلا ناقد كالغريزة بلا عقل تنطلق فى اعصار الميول والاهواء لا ضابط لها يكبح جماحها ويكسر من شرتها ويهديها سواء السبيل

فكلما أحكمنا الصلة بين الاديب والناقد قربنا مسافة الخلف بين غريزة الاول وعقل الثانى واستخلصنا من هذا المزاج قوة متزنة تسلك بالادب طريقا رحبا معبدا خصبا »

هذا مايقوله كبير نقدة الالمان وما نرغب فى تطبيقه على الحركة الادبية فى مصر .

فهل فى مصر اليوم نقد صحيح يساير حركة الانتاج الادبى وينشطها ويحفزها ويسهر على تقدمها وارتقائها ويفحصها فى ضوء العقل المتزن ويسترشد فى حكمه عليها بفضائل الامانة والنزاهة والحرية والاخلاص ؟

الحقيقة التى لاشك فيها ان ليس فى وسع الباحث المنصف انكار النهضة الادبية فى هذا البلد وآثارها والجهود التى تمخضت عنها . ولكن الحقيقة أيضا ان هذه النهضة توشك أن تصبح مهددة بالشلل والجمود والموت

لافتقارها إلى تلك القوة الناقدة الضابطة التى تأخذ بيدها وتهزها من سباتها وتنعش منها الخصائص الراقدة وتصب فيها دم الحياة والتطور

والواقع ان لانقد فى مصر اليوم . وتلك حال يؤسف لها وظاهرة خطرة تجب المصارحة بها وإلا اختلطت البقية الباقية من القيم الادبية وانحطت اقدار النوابغ المجاهدين وانكرت اعمالهم ودب روح اليأس فى نفوس الشباب ورجعت الحركة الفكرية القهقرى

ومما يلاحظ فى مصر الآن أن العناية بالنقد تكاد تكون معدومة الاثر فكتابنا ينتجون المقالات الاجتماعية والابحاث الادبية والشعر والقصص ولكنهم لايهتمون بنقد اعمالهم بعضهم لبعض نقدا بريئا نزيها خلوا من الغرض . وانت قد تطالع جميع الكتب الأدبية التى أخرجتها المطابع المصرية فى هذه السنوات الاخيرة فلا تجد بينها كتابا واحدا عرض فيه صاحبه لنقدأعمال طائفة من الادباء المعاصرين وتخصص لهذا النقد وانقطع له وابتدع أو اقتبس ونظم مقاييس أدبية تضع حدا للفوضى الحاضرة وتتجه بالأدب وجهةجديدة وتقرر مراكز الأدباء وتعترف بجهود الناشئين منهم وتعطى لكل ذى حق حقه

نشأ من هذا النقص أى من فقدان معظم الكتاب روح الاخلاص والنزاهة وعدم وجود نقدة اخصائيين تكسبهم حريتهم وامانتهم ضربا من الاحترام والسلطان وقوة فى الفصل والتحديد ، ان أضحى النقد فى مصر إما تقريظ على طول الخط وإما تحامل وتنقص على طول الخط أيضا ، فكل اديب يحامل الآخر وكل صغير ناشىء يمدح الكبير المشهور ليظهر ويصل ، وكل كبير ماجد ينصب حول نفسه سرادقا مقدسا لايدخله غير المتزلف الحقير ، والعاجز المنكوب ، والحوارى البائس المؤمن به ، المقر بعظمته، الشادى بفضله من دون أدباء للعالم .

وترى هذا الاديب الشهير الماجد على ما أصابه من شهرة ومجد يخشى النقد كعفريت أسود ويستخدم لخنقه مكانته ونفوذه والحواريين الذين جمعهم للدعاية والزلفى وللسمر والمنادمة وقتل الوقت

فمعظم كبار الأدباء فى مصر لا يطيقون النقد ولا يسلمون به والغالبية منهم بما تملك من وسائل النشر والاعلان تبذل جهد الطاقة لعرقلة كل حركة من حركات النقد لا يقصد بها اطراؤهم ومحاربة خصومهم وإقامة العقبات فى سبيل إظهار شخصيات أدبية جديدة قد تنزلهم عن عروشهم وقد تحتل فى الغد القريب تلك العروش !

وهناك ظاهرة أخرى أشد خطورة مما تقدم على نهضة الفكر والنقد عندنا ، وهذه الظاهرة تمس أسلوب النقد نفسه والطريقة التى يعالج بها أشباه النقدة العمل الأدبى المطروح بين أيديهم .

هؤلاء الناس يتناولون الكتاب الجديد فى نظرة تعسفية جائرة يريدون تطبيق نظرياتهم الخاصة وأفكارهم الخاصة ومذاهبهم الادبية الخاصة على صاحبه ، فان وجدوا فى الكتاب ما يتلاءم وتلك النظريات والمذاهب امتدحوه واعترفوا به وإلا فالاستهتار والتنقص والتحامل نصيب مؤلفه التعس المنكود .

هذا الفريق من أشباه النقدة لا يفهم أن أول شروط النقد الاعتراف بشخصية المنقود والتسليم بان هذه الشخصية لابد أن تختلف عن شخصية الناقد وان لها افكارها ومنازعها وطريقتها الخاصة فى الانتاج والخلق وان لابد للناقد كى يتعرف أسرارها ويستبطن دخائلها ويكشف عن القوى الجديدة التى تميزها ، أن يتضع حيالها وينضوى تحتها ويقبلها على علاتها حتى يفهمها ويستطيع فى النهاية أن يدلل على مظهر التقليد أو التجديد فيها وناحية القوة أو الضعف منها

أما محاولة تطبيق شخصية الناقد وآرائه على شخصية المؤلف وعمله فاستعباد للمؤلف وقتل لشخصيته ومحو لخصائصها وإغفال لجوهرها وانكار للفضائل التى تتميز بها والتى من أجل تحقيقها وإبرازها وضع المؤلف كتابه وفكر وتألم وجاهد واحتمل

فالناقد عند شروعه فى النقد يجب أن يتحرر من ميوله وأهوائه والا ظلم المنقود وغمطه حقه . والشائع عندنا أن انصار القديم اذا تصدروا للنقد تحكمت فيهم عقائدهم وثقافتهم القديمة فقاسوا بها وحدها العمل الأدبى وتوهموا أنها وحدها الميزان السليم

ومعظم أنصار الجديد اذا تصدروا للنقد غلبت عليهم عاطفة التمرد على كل قديم واهتدوا فى الحكم على العمل الادبى بما اعتنقوه من افكار ومبادىء حديثة معينة . وهكذا تغيب شخصية المنقود فى ميول وأهواء ناقديه فيستحيل على القراء أو يصعب عليهم أن يدركوا طابع تلك الشخصية المستقل وما تفردت به وما تحمل من تيارات جديدة للحركة الفكرية والادبية

ومن الادلة البالغة على فوضى النقد فى مصر ان من الادباء أو أدعياء الادب من يسمح لنفسه بنقد كتاب لايدرى عن موضوعه شيئاً . ولم تكن له بهذا الموضوع سابقة خبرة ومعرفة طويلة تؤهله للاضطلاع باعباء مهمة النقد الشاقة وتمكنه من الوقوف موقف الحكم المدرب المنصف النزيه

والأعجب من هذا أن بعض الصحف والمجلات تفتح صدرها لامثال أولئك الادعياء وتنشر لهم مقالاتهم وتشفعها بمختلف الألقاب وتدعهم بهذه الوسيلة يتحكمون فى أقدار العاملين ويتصرفون فى عقولهم ويقلبون القيم الأدبية وينفثون فى القراء سم الغرض وفى الكتاب سم اليأس ويجهزون لا على حركة النقد فقط بل على حركة الانتاج أيضاً أى على الفكر والنهضة القومية معاً .

وهناك فوق ماتقدم ظاهرة أخرى تفشت كالوباء بين بعض كتابنا وتأصلت فيهم واستحوذت على عقولهم وباتت كالعقيدة الراسخة لا يقبلون فيها الشك أو الجدل ولا يتحولون عنها مهما قدمت لهم من براهين .

وهذه الظاهرة هي احتقار كل عمل مصرى لأنه مصرى . واحتقار كل عمل شرقى لأنه شرقى . واعتقاد أن ليس فى مقدور أى كاتب أو فنان مصرى أو شرقى أن يبدع عملا أدبياً أو فنيا يضارع ولو من بعض وجوهه أعمال كبار أدباء وفنانى الغرب .

هؤلاء الكتاب عندما يقدمون على نقد مؤلف لأديب شرقى ينظرون اليه من حالق نظرة الزراية والاستخفاف ويقيسون عقله بمقياس بيئته المتأخرة ويجتهدون فى تبسيط مواهب هذا العقل والتشكك فيها والحط من شأنها كأن الطبيعة لا يمكن أن تخلق فى الشرق وفى ظروفه الراهنة عبقريا وكأننا لم نألف من العبقرى أن يتفوق على وسطه وان يجاوز حدوده وان يتقدم عصره باجيال .

والمدهش ان هذه الطائفة من النقاد على صرامتها وتعصبها كثيرا ما تكون جاهلة بالادب الصحيح ، عاجزة عن فهمه وتقديره فتلجأ الى الزراية والانتقاص مداراة لجهلها وعجزها وحبا بأشعار نفسها انها على حظ وافر من احترام الثقافة العالية والرغبة فى خدمة الادب الرفيع . .

ولا يسعنا ونحن فى معرض الحديث عن أمراض النقد فى مصر ان نهمل شأن المجلات التى هى موطن الثقافة فمعظمها مسئول عن انحطاط حركة النقد بما ينشره عن الكتب الحديثة من فقرات هى بمثابة الاعلان تدخل فيها كل ضروب الثناء والمبالغة والتهويل والتهويش ماخلا النقد

وأنا لا اعرف فى مصر غير مجلة واحدة هى (المقتطف) تعنى احيانا بالنقد النزيه

فتفرد له عـدة صفحات منها ولا تخشى عنـدئذ فى الصراحة والحق والامانة للفـكر لومة لائم .

أما الصحف فمقادير الأغلبية منها فى أيدى مشاهير الـكتاب ومعظمهم كما ذكرنا يقاوم النقد النزيه دفاعا عن نفسه واحتفاظا بمجده وتمـكينا لشهرته وخوفا من زحف طلائع الجيل الجديد

تجاه هذه الحال المنـكرة يحاول النقد ان يستوى على قدميه وان يشعر بكيانه المستقل وان يؤدى رسالته . ولـكن ريح الفوضى تعصف به من كل صوب وتوشك ان ترديه صريعا وتردى الفـكر معه !

***

ومن الظواهر الملحوظة فى النهضة الأدبية عنـدنا أن الهوة سحيقة بين الـكتاب المجددين وبين الشعب . انهم يتوافرون على دراسة الأدب الاجنبى ويبذلون جهد الطاقة فى ملاحقـة تطورات الثقافة الاجنبية ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يعيشوا ويفكروا ويحسوا كابناء القرن العشرين .

وليس هـذا دليل ضعف واضطراب بل هو على النقيض رمز النهضة وعنوانها والواجب المقدس المفروض على أدباء مصر جميعا . ولـكن المهم فى الامركى يتحقق معنى النهضة وتطرد حركة الانتاج وتزدهر شتى فروع الفكر أن تحكم الصلة بين الـكتاب المجددين وبين الاغلبية الساحقة من الجمهور

وهـذه الصلة الوثيقة لايمكن أن توجد الا بواسطة النقد النزيه يقوم به الادباء أنفسهم كما يقومون بالانتاج والخلق .

والواقع ان افتقار نهضتنا الى النقد وتبرم الـكتاب به وسخطهم الشديد على كل من يتصدر له جعل من المستحيل على الجمهور ان يفهم سر الجمال والحقيقة والابداع فى الاعمال الفنية الصحيحة التى تمخض عنها بعض أدباء مصر .

فالاديب عندنا قد يكون نابغا موهوباً ، وقد يكون عبقرياً فـذاً . وقد

يخرج من الآثار الأدبيـة ما يضارع أكمل وأروع مولدات العقل الغربي . ولـكن افتقارنا الى النقد النزيه الصارم يحجب هـذا النبوغ وتلك العبقرية عن أعين سواد الشعب فيظل العمل الأدبي الخارق لغزاً من الالغاز لا يستطيع التعرف اليه وحل رموزه وتذوق جماله وطرافته الا نفر معدود من صفوة المستنيرين والمثقفين

ولقد ظهرت في مصر اعمال ادبية ممتازة كقصتي (الأيام) و (زينب) مثلا فلم نشهد من كبار الادباء رجلا واحدا عرض لها بالنقد الصارم الحر واجتهد في درس وتحليل الفن الذي اتبع في وضعها وحاول أن يكشف للجمهور عن نواحي القوة والضعف فيها ويدلل على مقدرة الابتكار القصصي الشائعة بين سطورها

وانت قد تصادف شابا من هواة الادب ومحبي الاطـلاع فتسأله عن كتاب اعجب به فيعينه لك ثم تسأله عن سر اعجابه فيتردد ويحجم ويتعثر وينتهي به الامر الى المصارحه بأنه انما ابتاعه وقرأه واعجب به لانه كتاب مشهور لـكاتب مشهور

ومما لا يقبل الريب أن هذا الشاب أحس وهو يقرأ هذا الـكتاب احساسا جديدا وانفتحت مغاليق فؤاده على ميول واهواء جديدة ولـكنه يعجز عن تحديد احساسه ومعرفـة جوهر ميوله واهوائه والتدليل على خصائص قوة الـكاتب التي بعثت في صدره ذلك الضرب الغريب من العواطف والاهواء

واني لأتساءل أية فائدة من نهضـة أدبية لا يحسن جمهور القراء تعليلها وأية فائدة لهم من الاشادة بعمل لا يدركون موطن التجديد والجمال فيه بل أي عزاء للادباء في مجد يقوم على الشهرة وحدها ولا يستند إلى فـكر نير واحساس مشرق وعقل بصير وقوة ناقدة رشيدة تستطيع أن تقول لماذا هي تقـدر العمل الأدبي وما هي فضائل هـذا العمل وما هـو سر الحياة والابتكار فيه .

هذه القوة تكاد تكون منعدمة فى جمهرة القراء لأن النقد لا وجود له. ومن هنا كان شعور الكاتب المجدد بالهوة التى تفصل بينه وبين جمهوره وبالحاجز القائم بين عقليته وعقلية الشعب.

ولكى نسعى لتقريب مسافة الخلف بين الأديب وجمهوره ينبغى ألا نترك النقد يرتطم بين أيدى أنصاف الأدباء وأشباههم وألا نفتح صدر الصحف لهؤلاء وندع القراء فريسة أحكامهم بل الواجب أن يتقدم كبار الأدباء أنفسهم فينقد بعضهم أعمال بعض لأنهم وحدهم الذين يستطيعون بحث أعمالهم وتحليلها وتطبيق الاقيسة الأدبية الصحيحة عليها وتقديرها التقدير الحق وهداية الجمهور إلى جوانب الابتكار والتجديد فيها.

أما تقارض الثناء والاسراف فى المدح والخوف من مكاشفة الكاتب المشهور بعيوبه ووضع الصحف تحت تصرف أشباه النقدة يتناولون الأعمال بفكر ناقص وثقافة محدودة ونظرة تشوبها شوائب الزلفى والمحاباة فمن أكبر عناصر الفوضى.

والعجيب فى مصر اليوم أن الكاتب يعتصر ذهنه ويخرج عملا أقرب ما يكون إلى روح الأمثلة العليا التى تأصلت فيه بفرط مطالعته كتب الغرب فلا يجد أديبا كبيراً ممن فى وسعهم فهمه يتقدم فينقده ويقدره ويكشف للجمهور عما غمض من خصائص شخصيته.

وهكذا يظل النابغ مخنوقا والعبقرى مدفوناً إلا إذا أتاحت له الظروف الاستئثار بصحيفة تروج الدعاية لأعماله. وعندئذ لا تكون المسألة مسألة نقد مادام صاحب العمل هو الذى يسهر على نقد عمله وهو الذى يوعز الى أنصاره بتقريظه وهو الذى يتخذ من صحيفته أداة للشهرة والاعلان عنه.

ومن أسباب فوضى النقد فى مصر أيضاً تأثير مركز الكاتب من الوجهة

السياسية فى إنتاجه كأديب ، واحجام البعض عن نقده لتمتعه بهذا المركز السياسى ، وخشية البعض الآخر مما قد يترتب على النقدمن اغضاب حزب سياسى معين ، وتصور الجمهور ان فى النقد الصارم اعتداء وتنقص غير مباشر للفكرة السياسية التى يدافع ذلك الكاتب عنها

والواجب أن نفرق بين الكاتب كصحفى يعتنق فكرة سياسية ويخدم حزبا من الاحزاب وبين الكاتب كاديب مستقل حر . فلا نتهيب من أن ننقده مثلا فى صحيفة تخدم نفس المبدأ السياسى الذى يخدمه هو ، بصرف النظر عن الرابطة الحزبية التى يجب ألا تعدو شخصية الصحفى كى تطغى على شخصية الاديب فتعطل حركة النقد وتخنق حريته وتحل التضامن الحزبى محل النزاهة والامانة فى الحكم والتقدير الادبى

وهذه الظاهرة شائعة فى أوربا حيث لايخلطون بين السياسة والفكر ، وحيث لايمكن لعقيدة الأديب السياسية مهما سمت أن تؤثر فى أعماله الادبية ، وان تستر ضعفها وان تقعد بانصاره فى العقيدة السياسية عن المصارحة برأيهم فيها ونقدها النقد البرىء المنشود .

ولقد حدث فى فرنسا أخيراً ان ليون دوديه أحد زعماء الحزب الملكى اخرج كتابا عن (المرأة والحب) فما كان من موريس بوجو ساعده الأيمن فى دعواه الحزبية إلا ان نقد كتابه نقداً صارماً قاسياً فى نفس صحيفة الاكسيون فرانسيز التى يشرف على تحريرها ليون دوديه .

ولقد حدث أيضاً ان الكاتب الاشتراكى الفرنسى أوجين دابت وضع قصة جديدة تؤيد المذهب الاشتراكى ولكنها لاترضى الادب والفن الرفيع فما كان من صحيفة (موند) الاشتراكية الا ان فصلت بين المبدأ الحزبى والواجب الادبى ونقدت القصة فى اخلاص وصرامة فأسرع الكاتب

يشكرها ويبدى خالص اعجابه بموقفها فى اقصاء الادب عن السياسة والدفاع عن حرمة الأدب واستقلاله وحريته

ولكى نحيط بالعوامل التى تعوق نهضة النقد عندنا لابد من الاشارة مرة أخرى الى الفوضى الضاربة أطنابها فى بعض الصحف والمجلات حيث لا يعنى باختيار أفراد ذوى كفاءة وعلم يعهد الى كل منهم بنقد ماتخرجه المطابع فى مختلف فروع الادب والفن مما يتلاءم واستعداد الناقد وخبرته وكفايته

فالمحامى والمدرس والطبيب والمهندس كلهم يملك فى نظر تلك الصحف حق نقد أى كتاب والتكلم فى أى موضوع ومساجلة أى أديب واصدار الاحكام الفاسدة المغرضة التى كثيرا مايخدع بها الجمهور وكثيرا ماتتخذ صفة التحديد والفصل اذا نشرتها صحيفة محترمة كبيرة

والواقع أن معظم مجلاتنا وصحفنا أحوج ما تكون الى تنظيم النقد وتقسيم أبوابه وتكليف من توافر على دراسة فرع معين من فروع الثقافة بنقد الأعمال المتعلقة بهذا الفرع . وهو النظام السائد فى جميع المجلات والصحف الاوربية الراقية

فالذى اشتهر هناك بنقد القصص لا ينقد كتب العلم والذى عرف بنقد المسرحيات لا ينقد كتب الفلسفة والذى نبغ فى نقد الموسيقا لا ينقد التصوير والنحت

ومن البديهى ان كل أديب مثقف يستطيع أن يكتب فى هذه الاشياء ويستطيع أن يجيد الكتابة فيها ولكن تلك الصحف والمجلات لا تسمح له بالتعرض لمهمة النقد وحمل مسئوليتها الشاقة الا اذا دلت جهوده الأدبية السابقة على خبرة واسعة وتفوق ملحوظ فى الفرع الذى ينصب نفسه لنقده وتقويم معوجه

وهكذا يحرصون فى الغرب على القيم الثقافية ويطمئنون على اقدار الرجال ويدركون أن لا نقد حيث لا تفاهم وتعاون واستجابة بين الناقد والمنقود وهم إنما يسعون لايجاد نوع من التشابه الفكرى أو المساواة فى الكفاءة العقلية بين الأديب وناقده ؛ كى يشعر الاول أن هناك من يقدر على فهمه حق الفهم ، وعلى تقديره تمام التقدير ، وان فكره الثمين لن يبتذل ، وعرضه الأدبى لن ينتهك وشخصه المعنوى لن تتقاذفه ايدى العابثين من أشباه النقدة وأدعياء الادب

بهذه الوسائل وأمثالها يحترم رجل الفكر عندهم ويحترم عمله ويستطرد التطور الذهنى سيره فى طريق معبد رحب .

فعلينا فى مصر أن ندرك هذه الحقائق وان نعمل بها والا قضينا على حركة النقد وحركة الانتاج معاً

في العالم الشكسبيرى

فرغت أمس من مطالعة (هملت) لثالث مرة ولا أدرى ماذا انتابنى طوال يومى فلبثت أفكر كأن هموم الحياة قد تحالفت جميعاً علىَّ

شاع فى ضرب من القلق يخامره الذهول ، وتمثل لى العالم خاويا من كل فكرة أو معنى ، فشعرت باليأس يكاد يستولى على وبالكآبة والوحشة تطوقانى وتغلان يدى عن الحركة والعمل والجهاد

استطبت هذه الحال النفسية الشاذة واستمرأت الركود ورحت أعبث بصور الفضيلة والجمال والحب والموت أظمأ ما أكون للسخرية من كل شىء وتدمير كل شىء

وفيما كنت أتذوق حلاوة هذا التأمل الباطل كانت تلوح أشباح قصة شكسبير أمام عينى . كان أبطالها يطوفون بمسرح خيالى . وعباراتهم لا تنفك أصداؤها تدوى فى أذنى .

ساقنى اليأس من الحياة الى التفكير فيها ورأيت نفسى كهملت أبحث عن سرها ، وأحاول النفاذ الى تلك المجاهل القصية التى تكمن فيها منازع الفطرة واحكام الطبيعة وتصاريف القضاء ولكنى انتهيت برغمى إلى التفكير فى الرواية نفسها

من هو هملت هذا ؟

قال بعضهم انه المفكر المتطير العاجز الضعيف . وقال البعض الآخر

انه المتهكم المريض المعتوه . وصاح غيرهم بأنه الفيلسوف المتأمل الذي يحول فرط التفكير بينه وبين العمل المثمر العاجل .

أما أنا فأرى غير هذا !

أرى فى هملت صورة البطل المزدوج بطل التفكير وبطل العمل .

لم يشك هملت لحظة فى أن عمه قتل والده ، وأن أمه المجرمة شريكة عمه فى القتل .

اراد أن ينتقم ولكنه تباطأ فى الانتقام وتريث لا عن جبن وعجز بل عن رغبة شيطانية فى مضاعفة الانتقام والتفنن فيه ماشاء له تصوره الملتهب وعقله المتقد الواسع الحيلة والابتكار .

كان فى وسعه أن يضرب الضربة القاضية وينتهى ، ولكنه آثر التريث لا ليستوثق من وقوع الجريمة ولا ليستمد الشجاعة من ذكر أبيه بل ليعذب عمه ووالدته تعذيبا عقليا قبل أن يقضى عليهما القضاء الأخير . اراد أن يصيبهما فى النفس ، فى الضمير قبل أن يصيبهما فى الجسد . أراد أن يشهد بعينى رأسه اضطرابهما وحيرتهما وذعرهما وتفكيرهما الحى عن الذنب العظيم قبل أن يوردهما مورد التهلكة

لذلك تظاهر بالجنون ، وسخر من الفضائل ، وأشار على الممثلين الجوابين بان يمثلوا امام عمه القاتل قصة تشبه فى حوادثها مصرع ابيه المسكين

كان هملت يلتذ بكل هذه الألاعيب . يلتذ رؤية الجانيين فى حيرة من امره ، فزعين قلقين يتخبطان فى ظلمات الشك تصليهما ذكريات الماضى احر عذاب ويخشى كل منهما الحقيقة والافتضاح والثأر القريب من يدى هذا الشاب الذى يحوم حولهما ساخرا ساكنا متجهما حزينا منذرا بالويل والثبور

كان هملت سعيدا كصياد ماهر يطارد فى حذق وبطء فريسته . صياد واثق

من النصر النهائى الا انه يتعمد اطالة التحايل واطالة اللف والدوران اذ المطاردة ونشوتها احب إليه وأوقع فى نفسه من الاجهاز السريع على فريسته .

تلك هى بطولة الفكر . والمفكر بطل وملك وشيطان معاً . وكذلك كان هملت . يفكر فى النفس البشرية تفكيرا صارماً عميقا لا يقف بالعرف الشائع لحظة واحدة ، بل يمزق عن الفضيلة القناع ، فيرى النفاق ممثلا فيها . وينحنى على الأمومة المقدسة فيرى الشهوة ترتع فيها . وينظر الى الجاه والسلطان والمركز العالى الوطيد ، فلا يشهد غير الجبن والزلفى ، ويخاطب المجد فى جماجم العظماء فلا يحس غير التفاهة والعدم ، فيقهقه قهقهة معتوه ويلقى على أمه وعمه نظرة ملكية تعرف كل شىء ، نظرة هابطة من عل تشرف على الجرم الواقع وتستشف دخيلة الانسان .

وبما أنه مفكر . وبما أن الجريمة أنمت فيه خاصة التفكير وألهبتها . فهو يتحدث عن الحياة والخير والشر والجمال والموت ومابعد الموت ، ويفيض فى حديثه ، ويهذى تارة ويجد أخرى ، ويضحك فترة ويبتسم أخرى ، ولا يزال بالحقائق ينتهك حرمتها ويسوقها امامه واضحة عارية زرية فى حكم فلسفية غريبة وعبارات مبتكرة ملأى بالمفارقات والسخر حتى يرتوى ويثمل فتقر نفسه الجائشة الى حين

فهو يجد لذة فى التفكير إذن ، وكما يلهو بالخواطر والافكار كذلك يريدأن يلهو بتعذيب المجرم والمجرمة قبل أن ينزل بهما العقاب . والواقع ان العقاب العملى الفاصل لايهمه قدر ماتهمه لذة التعذيب البطىء . . .

وهذا هو الجانب الشيطانى فى شخص هملت .

ولو أنه لم يكن بالمفكر المتأمل المتفنن لما تريث فى الانتقام ولعاجل

المجرم بالقصاص ولكنه على النقيض استمهل القضاء لينعم النظر فى الجريمة ، ويتذوق حلاوة التأملات الفلسفية التى ابتعثتها فى فكره ، ويستخدم هذا الفكر الوقاد لابتداع شتى ضروب التعذيب والمواقف والحيل ، يهزأ بها من خصومه، ويوقع الرعب فى أفئدتهم ، ويشعر بتفوقه عليهم ، وبسيادة عقله واستطاعته أن يعاقب أو يعفو ، يتراجع أو يتقدم كما يشتهى وحسبما تملى عليه نوازعه .

أجل ! لقد كان فى دائرة الفكر بطلا وهو منصرف الى التأمل فى فلسفة الحياة برغم مايشعر به من ألم . وكان ملكا وهو يطوف بسكان البلاط حاملا حزنه متلفعا بصمته جليلا رهيبا مشرفا على حقائق الكل يمر بها غير محتفل وقد افتر ثغره عن ابتسامة ضجر واشمئزاز . وكان شيطانا وهو يفتن فى استخدام فكره ليوقظ ضمير أمه وزوجها وينكل بقلبيهما وروحيهما قبل أن تمتد يده إلى الجسد . . .

ما كان أفظعه وهو يشهد حفلة تمثيل الفاجعة أمام المجرمة وقرينها .

كان كالمشدوه لأن عقله استطاع أن يعثر فى النهاية على الوسيلة الخارقة التى تمزق فؤاد الأم وتطعن العم فى الصميم .

كان إذذاك أبعد ما يكون عن النبل والطيبة والرحمة ، كان مغرما بتعذيب الغير

كان يكاد يفقده الرشد لذة بما وصل اليه عقله من مهارة وقدرة وذكاء.

وكذا الفكر البشرى متى استدق ونعم احال صاحبه وحشا فى صورة انسان!

هذا هو هملت بطل الفكر وشيطانه وبطل العمل أيضاً ، العمل الذى يسير بخطى السلحفاة ولكنه واثق تمام الوثوق من بلوغ الغاية التى يسعى اليها

كان لابد لهملت ان ينتقم

كان لابد له أن يقابل الشر بالشر ويجزى السيئة سيئة مثلها . اذ هو على الرغم من خيالاته وشاعريته أوثق ما يكون ارتباطا بالغريزة واتصالا بالواقع، والواقع والغريزة كلاهما ينفر من المثل الأعلى ولا يعرف الرحمة ولا يسمح بها .

ان هملت غريزة مضطرمة وفكر مضطرم

لقدهموا بخداعه وارادوا قتله بسيف مسموم ولكن المفكر العملى لايخدع وسرعان ما فطن هملت الى مكيدتهم فراغ منهم وأودى بهم جميعاً

من ذا الذى قال عن هذا الرجل أنه خيالى وأنه عاجز لقد فاز . وما بطؤه فى اعداد معدات الكفاح الا بطء المفكر الذى يرسم الخطة الدقيقة التى توصل دون شك الى المبتغى .

إنه ليبدو لى أدرى بمستلزمات الواقع من أى انسان

فمأساة هملت ليست هى إذن مأساة الضعف كما يقولون بل هى مأساة القوة ، قوة الغريزة الحاذقة العالمة بما تريد تنقلب تحت تأثير العقل الفاحص المدقق أشد قسوة وفظاعة من الشر الذى تود أن تجازيه ومن المجرم الذى تود أن تعاقبه

لذلك أنا أعجب بهملت وأكرهه فى وقت واحد .

لم ألمح فيه أى شعاع من صفاء ، لم أر فى أعماله أى أثر لتوق البشرية الدفين الى المثل العليا

انه فردمتفوق وعادى معا ، لم يكد يلمس الجريمة حتى استحال هو أيضا مجرما اما المثل الأعلى فقد قتله ، خنقه بكلتا يديه فى شخص الفتاة الرائعة التى تمثله ، أو فيليا الطاهرة المحبة العظيمة ، التى لما أن عرف بانتحارها لم ينطلق صوته بصرخة تبكيت عميقة واحدة

أين هملت ؟ أين هو من ديمترى كارامازوف أحد أبطال قصة الاخوة كارامازوف للروائى الروسى فيدور دستويفسكى ؟ ذلك الشاب الذى أدرك أن معظم أفراد اسرته مجرمون فضحى بنفسه وارتضى السجن بدلا من أخيه • قدم ذاته قربانا وفدية عنهم جميعا

ولكن الادب الاوربى لم تلمع فى سمائه أبداً مثل بارقة الرحمة هذه

فشكسبير أرادأن يصورلنا رجلا تنازعته عوامل ، التفكير والعمل ، فلم يستطع الا أن يعمل . ان ينتقم فى اصرار ومهارة ووحشية لأنه مفكر قبل كل شيء . ولانه مفكر أوربى عملى قاس يريد أن يصل الى نتيجة عملية خارقة . ولأن الفكر طغى فى نفسه على كل شيء وخنق القلب والاحساس .

وأنا أود أن أصارح بأمر قد يبدو للقارىء غريبا ولكن الحوادث تؤيده كل يوم

أليس هملت هذا هو مثال الرجل الانجليزى خاصة والاوربى عامة ؟

الرجل الذى لايدين بغير الواقع ولا تعرف الطيبة والرحمة الى قلبه أى سبيل ؟

الرجل الذى يفكر ويتثقف ويتفلسف ويطاول القوى الخالقة ويخاطب أسرار الطبيعة ويفهم الغير حق الفهم لايصفح عن أخيه الانسان ويعاونه ويحبه بل ليتحين الفرص للايقاع به فى بأس يزيده تفنن العقل المثقف شدة وعمقا وخطورة ؟

أجل ان هذا الرجل هو الأنسان . ولكنه الانسان الغريزى الذى أنمى عقله لمصلحة غريزته . أى لخدمة الشر والابقاء عليه والاشادة به كوسيلة من وسائل الانتقام والقوة والعدل

لذلك أنا لا أحب هملت !

فى عالم راسين

يقول المؤرخ والناقد الايطالى الكبير جوجليلموفيريرو ان النزعة الجرمانية السكسونية فى الأدب والفن وفيما يتعلق بشؤون الاجتماع نزعة ترمى إلى القدرة والتغلب اما النزعة اللاتينية فترمى إلى الكمال

وهذا ماأحسست به تمام الاحساس وأناأشهد تمثيل رواية (فيدر) للشاعر الفرنسى العظيم راسين على مسرح الكورسال

لقد كانت تمثل دور فيدر الممثلة الذائعة الصيت مارى تيريز بييرا

وقصة فيدر هذه هى قصة الحب المحرم فى أفجع الوانه . قصة امرأة تغرم بابن زوجها فلا تصادف منه غير الصد والاجتواء وضرب من الكبرياء القاسى وعدم الاكتراث

تثور ثائرة فيدر وتشتعل فيهاانوثتها المهانة وتتقلب بين واجب الزوجية وواجب القلب وهذا التقلب نفسه يزيد فى حبها اشتعالا وفى غرائزها الشاذة تأججا واضطراما فتصارح ابن زوجها بما يكنه فؤادها المعذب من هوى ، فيستنكر الشاب هذه العاطفة وينحى باللائمة على زوج ابيه ولكنها تجثو عند أقدامه مستعطفة شاكية فيهوله منهاتهتكها وأصرارها ، ويستفظع كيف لاتتورع عن العبث الصارخ بأقدس الواجبات فيود ان يفر منها فتقنط وتهيب به ان يسرع فيقتلها انقاذا لها مما فيحجم فتمتشق حسامه تريد غماده فى صدرها .

ولكن العاطفة الملتهبة هي بعينها غريزة الحياة ، وهي التي تحفز الانسان على التشبث بكيانه والدفاع عن حقه أو لذته ، وقد ما كان الحب اقوى من الموت ، ففيدر لا تنتحر ، وانما هي تعيش لاستزادة غرامها قوة والتذاذ ما يحدثه لها من الم ، والعمل على امتلاك حبيبها ان طوعا وان كرها

وبينا هي تناضل ما استطاعت للفوز بمن تحب تعلم بغتة أنه يهوى سواها ويؤثر عليها مفاتن امرأة اخرى دونها جمالا وسلطانا ، وعندها يصبح قلب فيدر أتونا متقدا من الانفعالات المتضاربة العنيفة بل بركانا ثائراً يقذف ما فيه من حمم على كل ما يحوطه من اشخاص وأشياء

ولم ار في اروع قصص الأدب صورة مخلوق جمع من العواطف ما احتشد في صدر فيدر لخيانة الزوج الراحل والحب المحرم ، والاحساس بالوحدة ، والاتضاع والذل والتوسل والضراعة والشهوات الجثمانية الجامحة العمياء والغيرة المشتعلة الفاتكة ورغبة الانتقام والتشفي واليأس المستحوذ الأليم . كل هذه الاحساسات تعصف بتلك المرأة وترفع بها من مستوى الانسان العادي إلى مستوى البطل الذي يتحدى العرف والقانون والذي تجرب عليه الحياة عناصرها بل الذي تتمثل فيه حياة الغريزة الحرة التي لا تأبه لسلطان المجتمع وأوضاعه بل تنصب سيولها ورغباتها في نهر اللذة الجنسية غاية الانسان الاول كالنوم والطعام والقتال .

وأروع ما في فن الشاعر العظيم راسين هو انه يتدرج بشخصية بطلته فيدر من الحب الى الذلة فالالتماس فالغيرة فالانتقام فاليأس فالعدم واذا بها تنمو أمام عيوننا وتتضخم شيئا فشيئا كعاصفة تبدأ سحبا ملبدة ثم تعود رعودا قاصفة فجليدا فامطارا ثم سكونا ترجع بعده الحياة الى سابق مرحها وعدم احتفالها

ولو أن شكسبير كان قد تناول هـذا الموضوع لملأه بالاستعارات الهجامة الغريبة والتأملات الفلسفية البعيدة الغور ، والصور والخيالات والرؤى التى يسبغها كعادته على أبطاله فيخيل للسامع أو القارىء انها خرجت من مسرح خيال الشاعر قبل ان تخرج من جوف الحياة .

وهذا هو فن القدرة كما يسميه الناقد الايطالى فيريرو .

فن تتحكم فيه عاطفة الفنان وينبع من مخيلته وفطرته تختلط الوانه وتهدر موسيقاه فى غير ما وعى أو حساب

فن قوامه الجموح فى تصوير الانفعالات ومراكمة التشابيه عليها حتى تغيب فى غمرة الجنون المستولية على خيال الشاعر .

فالبطل من أبطال شكسبير يعمل فى الخيال وهو يعمل فى الواقع . أى أنه يتحرك وسط التصورات الشعرية بينما هو يتحرك وسط الحياة

فحياته العملية تنحدر من التصور الشعرى مباشرة فتبدو لنا خارقة وعلى شىء من الشطط الذى انتاب ذهن الشاعر . . . .

أما راسين فلا تحول تصوراته الشعرية بين أبطاله وبين اتصالهم المباشر بالحياة .

فهم أقرب الى الواقع اليومى الذى نحسه أمامنا على الفور من أبطال شكسبير هم أوضح إحساسا ، واجلى عاطفة ، وابصر بدخيلة نفوسهم من ابطال شكسبير .

ويرجع هذا إلى أن فن راسين فن متزن يشيع فيه الاتساق والتناسب والمنطق والقياس وتلاؤم الألوان وتجانسها وسطوعها .

وهذه الفضائل لم تنضج فى أعمال راسين إلا لأنه جمع إلى تصور الشاعر تحليل الناقد وهدوئه ففيه مزيج متعادل من العاطفة والعقل ، لا تلبث العاطفة

ان تجمح وتشرع فى اخفاء الانفعالات تحت سيـــل الخيالات الشعرية الغريبة الداوية حتى يردها العـقل الى الواقع ويوازن بين اجزائها فتبدو لنا الشخصية إذ ذاك حية معقولة تفيض علينا بالتصورات الشعرية التى يسمح بها الموقف الذى تتخبط فيه لا أكثر ولا أقل

فكمية الشعر عند راسين لاتربى على الحادثه نفسها ولاتزيد عما يمكن ان يجول بخاطر بطله فى الحياة

فهى إذن خاضعة للموقف اما عنـد شكسبير فهى خاضعة لخياله ، خيال العبقرية الجارف الذى لايأبه للقياس والتناسب ولا يهتم بجمال الأشكال والاوضاع مادام جوهر الشخصية الانسانية صادقا سليما صحيحا .

فشكسبير بعيدعن الحياة المباشرة ولـكن الحياة العميقة تنمو فيه وتزدهر

وراسين يحاول أن يوفق بين مظهر الحياة المباشرة وجوهر الحياة العميق

الاول عماده الغريزة والوجـدان قبل العقل والثانى يهتدى ساعة الخلق بالغريزة والعفل سويا . فنحن نخاف شكسبير ونطمئن لراسين

نخاف شكسبير لأنه الطبيعة المكتسحة العمياء ونطمئن لراسين لانه إنسان متحضر يريد ان ينفذ بعقله واحساسه الى لب تلك الطبيعة العمياء

يريد ان نفهمها ويسيطر عليهـا ويسودها بالعقل المحلل الفاحص بينما شكسبير يشربها نفسه ويندمج فيها ويؤديها صاخبة عاصفة كما هى

ونحن لانتزع الى المفاضلة بين الشاعرين فالفن غـير العلم ومتى أقمناه على قواعد ثابتة حولناه عن غايته ورجعنا به القهقرى

وهل يمكن أن تـكون لمختلف العواطف الصائلة فى مختلف قلوب الناس قوعد وحدودا

وهل أنا أرى العالم كما تراه أنت وهـل أحس الحب والبطولة والدعابة

والتضحية كما تحسها أنت بل هل أنا أفهم الخير والشر كما تفهمه أنت ؟

ما الفن إلا محض رؤيا مستقلة شخصية تنبع من الفرد وترجع اليه، وبقدر مافى الدنيا من مخلوقات سابحة على سطح الحياة بقدر ما فيها من ألوان الجمال

والفنان العظيم هو الذى يستطيع أن يمنحنا صورة جديدة للدنيا . هو الذى يمكنه أن يراها بغير العيون التى تراها أنت بها . وكلما كان احساسه عميقاً ونظرته نافذة أماط لك اللثام عن مباهج ومناعم مستحدثة طريفة لم تفطن أنت اليها لفرط ماقد شغلتك ظواهر الاشياء عن انعام النظر فى بواطنها .

ففن راسين هو رجع صدى مزاجه وهو أثر من آثار عنصره اللاتينى فيه . فالشعوب اللاتينية تنشد فى الفن الكمال أى المنطق والوضوح والاتزان وتناسب الأوضاع ونظامها وتتوسل الى ذلك باخضاع العاطفة لحكم العقل .

والفن اللاتينى تشوبه الروح العلمية والفنان اللاتينى يمت الى العالم بأوثق صلة ، فالعالم يعتقد أن للطبيعة نظاما وقوانين عليه أن يفهمها ليسيطر عليها وينتفع بها وكذلك الفنان اللاتينى يحاول أن يسيطر على العواطف ليفهمها وينفع بها الانسان فى تفهم ميوله الخاصة وميول الآخرين وضبطها وتسييرها فى سبيل مثمر يختطه له العقل .

أما الفنان السكسونى أو الجرمانى فهو فى الغالب لايهتم بأن يسود الطبيعة بل يطمح الى الانطواء فيها والفناء فى أشكالها فناء يحيله عنصرا حياً من عناصرها إذ الفن فى عرفه تمجيد لقوى الحياة قبل أن يكون دراسة عقلية لتلك القوى وكلا الفنين عظيم وكلاهما رائع وجميل .

وان من يؤثر أحدهما على الآخر أو ينتصر لهذا على ذاك ينكر على المزاج البشرى مميزاته وغناه ويثير معارك جدلية لاطائل تحتها .

غير انى اذهب فى تقديرى لقصة فيدر مذهبا خاصا فأقول انها ملتقى النقيضين ومجمع النزعتين . القدرة والكمال

فاندماج الشاعر راسين اندماجا تاماً فى العواطف المتفززة الجامحة الهوجاء متوفر فيها وهذه هى روح القدرة

واتزان الاسلوب ووضوحه وتحليقه فوق العواطف صافيا ساطعا متوفر فيها أيضا الى ابعد حدوهذه هى روح الكمال .

بل أكبر ظنى أن الكمال متوفر فى الجوهر أيضا أى فى طريقة بسط العواطف و تدرجها وتسلسلها الطبيعى الحى وفى تولدها من بعضها البعض وفق نظام شكلى لايحدسير العاطفة ولا ينتقص قوتها وسلطانها . و تلك هى المعجزة

وانها فى الحق لمعجزة يقف لديها السامع المشاهد خاشعا حائرا . فها هنا القلب الانسانى بما فيه من حب وبغض . شفقة وحنان . تضحية وانتقام . وليس القلب الانسانى فقط بل الجسم الانسانى أيضا أى الشهوة التى تزيد الاهواء اضطراما و تكسب العواطف من تفاعلات البدن ما يضاعف حدتها ويجعلها غريبة مضطربة متناقضة معقدة كعواطفنا جميعا

ولم تكن الممثلة النابغة مارى تيريز بييرا تمثـــل دور فيدر بل كانت تعشقه عشقا فلم تكد تبرز على المسرح وتخطو بضع خطوات حتى شعرت بالقضاء ممثلا فى عشقها المحرم يحلق عليها كما كان القضاء ممثلا فى الجريمة المزدوجة يحلق على الملك أوديب

كانت إشارات مدام بييرا ولفتاتها وجلة مذعورة كأنما (فينوس) قد جعلت منها حقا فريستها وشدتها اليها كما يقول راسين

فزئير مختلف العواطف كان ينطلق من صدر الممثلة فاجعا رهيبا بقدر ما كانت تحس أن لا سبيل لها الى الخلاص من تلك العواطف

كانت تناضل وتستنكر وتستشيط وهى تعلم فى قرارة نفسها ان لاقبل لها بمقاومة القدر فتكاد تجن يأسا من ضعفها والتذاذ بهذا الضعف وهذا النضال

ولكن المرأة قوية، قوية الى حد البطولة فى احتمال كل ما يمكن أن يصيبها به الحب

وبطولة الحب فى الألم والاحتمال والتحدى هى التى استوت امامى طاغية جبارة فى شخص الممثلة النابغة مارى تيريز بييرا .

لن أنسى هذه الليلة فقد انقذتنى من تشابه حياتنا المصرية وضجرها، من ركودها وهمودها، من مجونها واستهتارها بل من الجبن العاطفى الذى ابتلت به الحضارة أرواحنا .

الا انى برغم الاحساسات العظيمة التى خالجتنى وانا أشهد هذا العمل الفنى المعجز وبرغم الحيوية الدافقة التى صبها فى عروقى خرجت اسفا حزينا كاسف البال .

لم يكن فى المسرح مناغير خمسة .. خمسة فقط من الشباب المصريين !.

الفنان والمرأة

يعتقد معظم رجال الادب والفن أن لابد لهم من المرأة ترافقهم فى جهادهم اليومى وتمنحهم عطفها وحبها وتخلق لهم ذلك الجو الهادىء الذى يجب أن يسود حياة الفنان كى يؤدى رسالته وينتج العمل الخصب القوى .

ومن الفنانين والأدباء من يستوحى الطبيعة كجان جاك روسو ، ومنهم من يجد الالهام الشعرى فى الدين والتصوف كرابندرانات تاغور، ومنهم من يفجر ينابيع الشعر والفلسفة من ذات نفسه أى من انانيته وعظمته وبطولته كفردريك نيتشه . ولكن هؤلاء وغيرهم مهما تباين وحيهم الفنى ومهما اختلفت عقولهم وأمزجتهم ونظراتهم إلى الحياة ترى الغالبية فيهم ماتزال تنزع إلى المرأة وتتطلبها وتجد فيها مستهبط الوحى الاكمل والصورة الابدية الجامعة شتى خصائص الحياة .

والواقع أن المرأة بجمالها الذى يبدو فى مخيلة الفنان منوعا طريفا دائم الفتنة والتجدد ترمز إلى الطبيعة الكبرى ومافيها من متعدد الاشكال والالوان .

والمرأة بعواطفها المضطربة المشوشة المحتدمة ذات الغموض والتعقد ترمز الى النفس البشرية ومافيها من غرائب واسرار . لهذا احبها الفنانون وأولعوا بها وتفانوا فى اطلابها وجعلوا منها الوحى الاصيل المتألق بمختلف أضواء الحقيقة والجمال

والمرأة من جهة أخرى مخلوق رقيق المظهر عذب الحديث . حلو المعاشرة يغرى بالصفاء الروحى والهدوء العقلى والنظام البيتى ، وكل هذه عوامل يحتاج اليها الفنان عندما يستجمع قواه الفكرية ويعتزم الانطواء على نفسه واعتزال العالم والانصراف إلى الانتاج والخلق

وأنت لا تكاد تدرس حياة أديب أو فنان حتى تلمح أثر المرأة ـ سواء أكانت زوجة أم عشيقة أم أختا أم والدة ـ لا فى تكوين شخصيته فحسب بل فى تكوين عمله وفكره أيضاً

وقد يتفق لأديب أن يسعد بامرأة ترعاه بعين رعايتها وتقدر عقله ومواهبه وتخلص فى حبه وخدمته وتحفزه لاحتمال التضحيات من أجل تحقيق رسالته .

وقد يتفق لآخر أن يشقى بالمرأة التى هام بها وأرصد عليها جهد قلبه واستودعها خلاصة هواه وآمن بكل جارحة فيه انها مستقر الهامه وسر عبقريته ، ولكن الحق الذى لاشك فيه أن الحب الخائب ـ بالنسبة للاديب والفنان ـ انفع للأدب والفن من الحب المتبادل المنتصر

ونحن لا نعرف فى تاريخ الأدب والفن الا نادرا ان حبا متبادلا كاملا عظيما تمكن من تغذية عبقرى بعناصر انسانية جديدة وهيأه لفهم جوانب من الحياة كان يجهلها

وما الحب الكامل الاصفاء وحلم وسكون أقرب الى الجمود والاكتفاء بالواقع منه إلى النشاط والتجدد والاتصال المطرد بقوى الطبيعة والبحث الدائم عن المجهول

وقد يساعد الحب الكامل أو الحب الموفق الاديب أو الفنان على الانتاج بما ينشره حوله من جو هادىء ، ولكنه لن يجديه نفعا فى زمن التحصيل

والادخار وجمع الحوادث والآراء والمعلومات والملاحظات التى سوف يبنى عليها سلسلة أعماله الفنية المقبلة

وانى أرى ان الفنان أو الاديب لو اعترضه فى مستهل حياته حب موفق ارغمه على الاكتفاء بامرأة واحدة فلا بد ان يفضى به ذلك الى قبول التضحية بجزء كبير من فضوله الفكرى فى سبيل مرضاة حبه والمرأة التى يحب

أما ذلك الذى يحب فيخيب فيتجه بأبصاره وعواطفه نحو مخلوق آخر فرجل أحس وتألم واختبر وأثرى

وإذن فلا بد لرجال الادب والفن من المرأة ولا بد لهم منها على اعتبارها صورة تمثل النوع والطبيعة وتتشكل باشكالهما لا على اعتبارها امرأة معينة يجب أن تحب دون غيرها من النساء

ومعنى ذلك أن الأديب أو الفنان الصحيح يهوى المرأة فكرة ورمزا لا هيكلا وحقيقة . وهو ان أولع بهذا الهيكل فلا مندوحة له عن هجره الى سواه وإلا أصابه منه الخور والجمود والصفاء الشبيه بالعدم

وكيف نطلب إلى الاديب أو الفنان أن يفعل ما يفعله الناس فيجمع العالم فى انسان واحد ويرى الجمال فى وجه واحد وينشد الحقيقة فى نفس واحدة

انه أبداً متقلب متلون كالمرأة نفسها ! أليست المرأة مخلوقا أهوج طائشاً صبيانيا محمولا على تيار النزوات الطارئة والميول العارضة ولاهواء المتعاقبة ؟

ثم أليست هذه النزوات والميول والاهواء هى التى تجعلها اوثق من الرجل ارتباطاً بعناصر الحياة الاولى . وأقدر على فهمها وأشد احساسا بها وأسرع فى الاستجابة لها ؟

وكذلك الاديب أو الفنان لا مجدله ولا حياة ان هو لم يستسلم كالمرأة لمختلف تلك التيارات . ولكن الفارق بينه وبين المرأة ان المرأة تحس أكثر مما

تدرك ، وتحس وتدرك لتستمع بهذا الاحساس والادراك وتنتفع بهما فى حياتها العملية أى ان احساسها وادراكها يتبددان ويفنيان فى المتعة والفائدة التى تشعر بهما فى نفسها ولنفسها

أما الاديب أو الفنان فيحس ويدرك لنفسه ولنا . يريد أن يهلل ويمجد ثم يعبر ، يريد أن يستمتع ويسود فى وقت واحد . يريد أن يسيطر على الطبيعة برسمها وتحليلها لا أن يخضع لاحكامها ويتخذ منها اداة نفع وشهوة

وفى ذلك يقول الكاتب الالمانى الاشهر نوفاليس : « انى لاشعر بدافع غريزى يدفعنى الى حب كل شجرة وزهرة . والتغنى بكل نهر وجدول . والاعجاب بكل لون وضوء وعبادة كل امرأة وفتاة . ولو انى انصرفت عن هذه الروائع الى بعضها أو الى واحدة منها لشعرت على الفور ان أعضاء رئيسية تبتر من بدنى وانى صائر الى الموت لامحالة فى حين انى ماجئت الى هذه الدنيا الا لتقترن حياتى بحياة الرجال والنساء والطيور والينابيع والانهار وكائنات الارض جميعا ! »

هذا هو الفنان ! لا يقنع بشىء ولا يمكن أن يرضيه شىء ، تستخفه اليوم عين ساحرة لتأسره فى غدو وجنة ناضرة . يعصف به اليوم حب جامح يظنه باقياً فى نفسه أبداً فلا يكاد يمتص عصارته ويرسمه فى لوحة أو قصة أو قصيدة أو أغنية حتى يتبرم به ويزدريه وينزع إلى سواه

انه يأخذ ليلقى ، ويلقى ليجمع ، ويجمع ليعطى عن سخاء لا يبارى ، وهو فى جميع هذه الحالات يتألم ويغتبط بألمه ويرى فيه سر السعادة والخلاص

وليس أبلغ من الدلالة على ماتقدم من شخصية الروائى الروسى إيفان تورجنيف فقد كان فناناً إلى أبعد حد يقدس النساء أياً كن ويرى فى المرأة المادة الفنية قبل أن يرى فيها الجانب الشهوى

وكان اذا جلس الى سيدة فى إحدى صالونات بطرسبرج أو باريس لا ينفك يحدق الى عينيها أو فمها أو صدرها عله يعثر على الفتنة البارزة فيها المعبرة عن جمالها الخاص ، ثم يودع هذه الملاحظة مذكرته التى لا تفارق جيبه كى يدسها ذات يوم فى عرض قصة من قصصه الخالدة

ومن النصائح التى أسداها لأديب ناشىء قوله ينبغى ألا تقيد نفسك بعاطفة واحدة . إذ العاطفة المتحكمة القاسية تحد من عقل الأديب وروحه . والواجب أن تفتح مغاليق قلبك لشتى الاحساسات والميول

وبالرغم من هذا أحب إيفان تورجنيف المغنية الشهيرة مدام فياردو حباً عظيما . وكان يلتقى بها الآونة بعد الأخرى فى باريس . ولكنه لما اضطرته الظروف الى العودة إلى وطنه الروسيا لم يتمالك نفسه من التطلع الى غيرها من النساء اللواتى كان يرى فيهن مادة جمال جديدة تصلح لأعماله الفنية المقبلة

وهكذا الاديب أو الفنان يطمح الى الحرية ويكره الاستبداد ولو على يد أحب الناس اليه .

وهذا ما تفهمه المرأة حق الفهم لذلك هى تحذر الفنان ولا تؤمن بحبه ولا تعتقد صدق عواطفه وثباتها . إذ المرأة تطلب الرجل بجمعه لها ، وتفرض عليه الاكتفاء بها فرضاً . والفنان الصحيح كالطائر البرى لن يستطيع بأى حال من الاحوال أن يحيا فى قفص ولو كان هذا القفص من الذهب الخالص

وعندما اصطدم القصصى والفيلسوف ليون تولستوى بامرأته فى آخر أيام حياته وألفاها وقد انقلبت شبه عدوة له تحارب أفكاره وتسخر منها ، ثارت ثائرته على المرأة التى أحبها الحب كله وصارح نفسه والناس انه كان خيراً له لو لم يتزوج ، وانه خير للاديب أو الفنان على الاطلاق الا يقيد حياته

بامرأة تستبد به وترغمه على النظر الى نفسه والعالم من خلال عقلها الضيق واحساسها المحدود وعينها النفعية التي لاترى غير الارض . .

ولو أنعمنا النظر في شخصية أي نابغ أو عبقري من رجال الفنون والآداب لتبين لنا أنه في قرارة نفسه يطلب الحب ويخشاه ، يسعى اليه ويرتعد لمقدمه ، يتحرق عليه ويروغ منه ، وهو إنما يخشى الحب الصحيح ، الحب العاصف الغلاب القوي ، لان هذا الحب في الحقيقة أعصار يكتسح في طريقه العقل والنفس ويلقي على البصيرة والبصر غشاوة يستعذبها المحب بقدر كثافتها وظلامها وبقدر ماتقصيه هو وحبيبه عن بقية العالم

وقد يحس النابغ أو العبقري هذا الحب بل قد يتهالك عليه ويتفانى في طلابه ولكن سرعان مايسأمه ويزهد فيه ويتملص منه ، إذ العبقري أو النابغ يريد أن يرى ويفهم ويقيس ويفاضل ويتجدد ويؤدي ، وهذا هو السبب في أنه من المستحيل عليه أن ينسى نفسه أو يتناساها في أية امرأة ، وان يحب هذه المرأة الحب الكامل المنشود

ولو أن هذا الانسان الغريب أحب وتدله فلا بد أن تبقى مع ذلك في قلبه زاوية خفية مفتحة على الدوام لاستقبال كل وافد جديد . .

والسر في شقاء رجال الأدب والفن أنهم ينشدون الكمال المطلق ، والمرأة قد توحي لهم هذا الكمال ولكنها تعجز عن تحقيقه في ذاتها ، بل هي لاتفكر فيه ولاتنزع اليه بحكم طبيعتها العملية واتصالها الوثيق بحقائق الحياة المادية وفرط شعورها برغبة الرجل الشهوية فيها وبغريزة حفظ النوع الشائعة في كيانها الحسي والمعنوي . وهم يحسون ذلك منها ويشرفون على الهوة السحيقة التي تفصل بينهم وبينها ويلمسون الفارق العظيم بين طبيعتها الراكدة ونفوسهم الملتهبة فما أن يكاد يهيم بها واحد منهم ويستشعر حيالها بما قدمنا

حتى ينفر منها ويعرض عنها إلى غيرها ويظل يتقلب من امرأة الى أخرى باحثا عن تلك التى فى وسعها ان تحقق مثله الأعلى ولكن على غير جدوى .

والأرجح ان ليست هى حقيقة المرأة التى يستوحيها الأدباء أدبهم والفنانون فنهم ، وإنما هو وهمهم عنها وخيالهم منها وما يضفيه هذا الخيال عليها من رائع الألوان والصور

والواقع أنه من الصعب أن يجمع رجل الفن بين حبه لفنه وحبه لامرأة ، إذ الفن أو الأدب متى أولع به صاحبه وانقطع له وشاء التفوق فيه، استولى عليها كأجمل وأكمل امرأة، وحل فى قلبه وعقله محلها، وصرفه عن سائر الأشياء والتهم حياته كلها !

نظرات فى فن القصة

— ١ —

(القصة المصرية بين المبالغة والحقيقة)

من الأدباء النازعين الى كتابة القصة فى مصر من يظن أن الفن القصصى محض وهم وتخيل وتصور، وأن ليس على الراغب فى وضع قصة الا أن يتمثل فى ذهنه شتى الحوادث والاشكال والعواطف، ثم يربط بعضها بالبعض الآخر فى واقعة غريبة مخترعة يبذل قصاراه فى حشوها بالاحساسات العنيفة والمفاجآت المدهشة والمواقف الفاجعة التى تهز الاعصاب وتستدر الدموع

وأنت لا تكاد تقرأ قصة مصرية من وضع كاتب ناشىء حتى تلمح فيها أثر هذه الظاهرة واضحا كل الوضوح فى الموضوع والسياق ورسم الشخصيات وتسلسل الحوادث

وإذا كنت من رواد المسارح المصرية لاستقر فى ذهنك لامحالة أن هذه الظاهرة الطفلية الساذجة هى التى أجهزت على المسرح المصرى وعلى معظم القصص التمثيلية التى يؤلفها كتابنا وتعرض على مسارحنا فى تهليل كبير وفى طبل وزمر وفى اعلانات طويلة عريضة تتحدث عن نبوغ اصحابها وعبقرياتهم وجهودهم العظيمة

فالقصة عندنا سواء أكتبت للمطالعة أم للمسرح لا يقصد بها واضعها غير مساعدة القارىء أو المتفرج على قتل وقته .

ولكى يظهر القصصى براعته فى التسلية وقتل الوقت يعمد الى الحوادث المزعجة الرهيبة غير المعقولة فيراكمها فى جهل وسخف مراكمة لفرط غلوها واسرافها لا بد أن تؤدى فى النهاية الى نقيض المطلوب من القصة أى الى استثارة الهزء والسخرية والضحك

ولقد كنت فيما مضى من عشاق المسرح المصرى ومن رواد المسارح المصرية المواظبين، تبهرنى الاعلانات الضخمة وتحدث فى نفسى تأثيراً منعشاً لذيذاً يدفع بى الى مشاهدة كل قصة مصرية جديدة علىّ أعثر على المؤلف المنشود الذى فى وسعه ابتكار القصة القومية المبتغاة، ولكنى فى كل مرة كنت أجد نفس الاسراف ونفس المبالغة ونفس الخيال المريض ونفس العقم ونفس الدجل والتهويش فاخرج آسفاً حزينا تمتزج فى نفسى الحسرة المرة بالرغبة الشديدة فى الضحك الذى ينفس عن الصدور ويجدد فيها رغم كل شىء احساس التفاؤل وعاطفة الأمل

وهذا الشعور بعينه يستولى على عند مطالعة قصة وضعت للقراءة فلا أكاد أقلب منها بضع صفحات حتى أستشعر الخزى الذى لا بد يحسه صاحبها لو أنه أوتى مسكة من العقل والذوق السليم. ثم ينتهى بى الأمر إلى الاستغراق فى الضحك من كل هذا الهراء

والواقع أن هذه الظاهرة من الخطورة بمكان عظيم فالروايات الغثة من مؤلفة ومترجمة قد انتشرت انتشاراً واسعاً بين جمهور المطالعين والقصص التمثيلية التهويشية قد طغت على المسرح المصرى وسممت عقول الشعب وأفسدت أذواقه وشوهت ميوله الفطرية البسيطة وعلمته الكذب والنفاق وأغرته بحب المبالغة فى كل شىء

وهذه المبالغة الممقوتة هى الأصل فى انحطاط الذوق الفنى عندنا . فنحن نبالغ فى عواطفنا فنذهب إلى أقصاها دون أن نحكم فيها أذواقنا وعقولنا . فاذا ضحكنا نضحك حتى القهقهة ، واذا بكينا نبكى حتى العويل، واذا أحببنا تهتكنا فى حبنا ، واذا ارتدينا ثوباً جديداً تخيرناه صارخ اللون ، واذا خطر لنا أن نرسل نكتة ظريفة أقمناها أيضا على المبالغة، واذا كتبنا أسرفنا فى الألفاظ والعناية بها على حساب الفكر والعاطفة الصادقة .

فالمبالغة هى طابعنا . وهى طابع الشعوب التى لم تصقلها الثقافة المتوارثة ولم يعمل فى تهذيبها الفن الصحيح .

والحقيقة ان البيت المصرى والزى المصرى والاسلوب المصرى ، جميع هذه العناصر التى يتألف منها فكر الامة واحساسها ماتزال مشوبة بداء المبالغة الخبيث

فاستنادا الى مايحسه معظم الكتاب من تفشى هذا الداء فى الامة وتشبثها به وحبها له والتذاذها أعراضه يقدمون على وضع القصص التهويشية التى لايكاد يروج فى البلد سواها

وبعض هؤلاء الكتاب يدرك ما يفعل ولكنه يمضى فى عمله بغية الكسب والبعض الآخر وهو الأغلبية يضع تلك القصص لان ليس فى مقدوره وضع غيرها أصلح منها وأقرب الى الفن، ولأنه هو نفسه مصاب بالداء المصاب به الشعب

وفى كلتا الحالتين يجد الكاتب أن قصصه تروج وتتخاطفها الايدى وتدر الربح الوفير فيظن ان النجاح هو مقياس الفن وأن القصة الناجحة هى التى تصادف هوى من نفوس الجماهير وان خيرا له ألف مرة أن يضع قصة ناجحة من أن يرهق نفسه بآراء ومبادىء فنية تباعد بينه وبين عقلية الشعب وتقضى

على عمله لا بالفشل المادى فقط بل بالسقوط الفنى أيضا لأن حكم الشعب هو الذى يفصل فى قيمة العمل المادية والفنية على السواء

فأنت ترى من هذا أن الأغلبية عندنا مريضة وان الكاتب نفسه مريض . وانه لم يتكون عندنا حتى الساعة ذلك الرأى العام المثقف الذى يفصل بين الأعمال الفنية والأدبية ويحدد قيمتها ويستطيع بما له من نفوذ أدبى أن يحدث تأثيراً ولو نسبياً فى اتجاه ميول الكاتب وميول الشعب

ولكن هل معنى هذا أن ليس فى البلد نهضة أدبية قصصية وليس فيها طائفة من الكتاب ينزعون نزعة فنية نحو ابتداع أدب قصصى موفور قوى الحياة والجمال ؟

الحق أن هذه الطائفة موجودة ولكنها تنقسم الى فريقين . فريق تغذى بمختلف الثقافات الأدبية الاجنبية وعرف حق المعرفة المراد بكلمة أدب وفن وقصة وفريق لم تسعده الظروف بدراسة تلك الثقافات أو لم يفهم أصولها وتعاليمها على حقيقتها فمضى فى طريقه غير حافل بها يضع القصص تلو القصص معتمداً على خياله وحده وعلى مايظن انه يعرفه من أخلاق الناس وعاداتهم وميولهم وعواطفهم

وبين هذا الفريق الثانى نفر ممن يحسنون على الاقل لغة أجنبية فهؤلاء يحتاجون الى الامعان فى دراسة الأدب الاجنبى وبينهم من لا يعرفون سوى العربية وهؤلاء فى حاجة الى تتبع الدراسات النقدية عن الفن والأدب الأجنبى التى تنشرها مختلف المجلات والصحف لأدباء مجددين مثقفين كى يقفوا منها على النظريات السليمة والقواعد الفنية المقررة التى ينهض عليها فى الغرب فن الكتابة وفن القصة

وهنا أريد ان أقف بالقارىء لحظة لأقرر ظاهرة مرضية أخرى يشترك

فيها جميع الأدباء المصريين النازعين الى وضـع القصة سواء منهم المثقف بالأدب الأجنبي وغير المثقف . ولا يستثنى منها غير بضع افراد قلائل يعدون تقريبا على أصابع اليد الواحدة

وهذه الظاهرة هي الاستهتار بالحقيقية والاعتماد المطلق على الخيال

فالحقيقة فى نظر أولئك الكتاب لا شيء والخيال هو كل شيء . والفن القصصي فى عرفهم غاية لا نتيجة · بمعنى انهم لا يعيشون قبل أن يفكروا فى وضع قصه ، لا ينتظرون حتى تنضج الحياة مادة القصة فى عقولهم ونفوسهم ، ولهذا تخرج أعمالهم فجة وسرعان ما تنبذ وتموت

ان القصصي الاجنبي يعيش ويختبر ثم يكتب . يلاحظ ويدون ويختزن ثم يكتب . يجوب الشوارع والازقة والمنتديات العامة ويتصل بالناس ويتحدث اليهم ويراقبهم ثم يكتب · يلقى بنفسه فى أتون العواطف ليحس ويتألم ثم يكتب . فتخرج أعماله ناضجة مليئة فياضة وقوة حياة !

أما عندنا فالقصصي يرسم لك شخصية يزعم انها مصرية فتشعر لفورك بضعفها وهزالها وتوقن أنه لم يتصل بصاحبها قط · ويرسم لك حيا مصريا فتدرك انه لم يطرقه أبداً · وقد تلمح من خلال صوره بعض ألوان مصرية موزعة مما يعلق بمخيلة كل فرد منا ولكنك عبثا تحاول ان تجد فيها أثر الدراسة المستفيضة وأثر الملاحظة العميقة واثر الصلة الوثيقة بين الكاتب وبين الصورة التى اعتزم رسمها

وليست العبرة فى أن نضع القصص ونحن جلوس الى مكاتبنا بل العبرة كل العبرة فى أن نعرف كيف نلاحظ الحياة وكيف نصبر على هذه الملاحظة وندقق فيها ونتخير من تفاصيلها الاجزاء الصالحة للعمل الفنى

القصصيون فى الغرب ينفقون صفوة شبابهم فى ملاحظة شتى الظواهر

المحيطة بهم ونادرا ما ينتج الفرد منهم قصة صالحة قبل الخامسة والثلاثين أو الأربعين والقصة بطبيعتها فن موضوعي اكثر منه ذاتي أي فن يتعلق بحياة الغير كثر مما يتعلق بحياتنا نحن . فلكي نحسن النظر في حياة سوانا يجب أن نعيش معهم ونفهمهم ونتصل بهم اتصال حب وعطف وادراك

وقد يستطيع القصصي الناشئ أن يبدع قصة ذاتية جميلة يعتمد فيها على رسم احساساته وميوله الخاصة ولكنه لن يخرج القصة الموضوعية الكبيرة التي تتحرك فيها عشرات الشخصيات إلا بعد حياة كلها اختبار وألم

فلندع اذن أدب المبالغة والتهويش والتهريج لذوى الضمائر الميتة من النفعيين وطلاب الشهرة من أقرب السبل . ولنؤسس القصة المصرية لا على قواعد الادب الاجنبي وحده ولا على التصور وحده بل على الحياة نفسها قبل كل شيء

واليوم الذي يدرك فيه القصصي المصري ان عليه ان يعيش قبل ان يكتب ، وان يدرب عقله وبصره على الملاحظة قبل ان يخط حرفا واحداً ، وان يحب الحياة بأعاصيرها وامواجها اضعاف حبه الكتابة والانتاج . هذا اليوم هو الذي يستطيع فيه ان يحدثنا عن حياتنا الخاصة وحياة الانسانية العامة حديث صدق وحقيقة وجمال !

— ٢ —

(الحقيقة والتصور)

الأدب القصصي ملاحظات وأحلام ، حقائق ورؤى ، بل مشاهد تنطبع في مخيلة القصصي وترسب في قرارة وجدانه ، فاذا ماحاول ابرازها من الظلمة الى النور ، اختلطت باحساسه ، واصطبغت بمزاجه واتصلت بآماله وآلامه فخرجت تحمل إلى الناس لونا من ألوان الحقيقة ، وطريقة من طرق تصور هذه الحقيقة ، كما يشعر بها الكاتب وكما تنبعث من خياله الشخصي المستقل

وروعة الفن القصصي ليست في رسم الحقيقة بل في نوع تصورها والاسلوب المستحدث الطريف الذي يتمثل فيه هذا التصور

وأنواع التصور الفني تختلف من حيث القوة والضعف باختلاف قوة ملكات الابتكار أو ضعفها في نفس الكاتب .

فأنت قد تصف لي مشهداً رأيته بعيني رأسك وملك عليك مشاعرك وأحدث فيك انقلابا عاطفيا خطيراً فلا أشعر حياله بأي احساس ، ويتناول القصصي الفذ هذا المشهد بعينه فيجزئه تجزئة فنية ماهرة ويقتطع منه عناصره الدخيلة ويعرف كيف يوزع الاضواء على الجوانب الهامة فيه . فيؤثر في أبلغ تأثير بل ينقش الحادثة في ذهني بحيث لاأنفك أذكرها كلما عرضت لي حادثة من نوعها .

وسواء أرأى القصصي الحادثة أم لم يرها ففي وسعه أن يضفي عليها من القوة الحيوية مايقنعني بأنها وقعت فعلا ، واني أمام حقيقة لاأمام خيال .

وعلة هذا ان القصصي الكبير ينفذ بعين بصيرته الى مالا يمكن أن يبصره سواد الناس فيرى الحقيقة الظاهرة والحقيقة الباطنة ، الجسم والروح ، الهيكل

والفكرة، عرض الأشياء وجوهرها مجموعها السطحى وتفاصيلها، أسبابها ونتائجها .

والحقيقة الواحدة تختلف كما قلنا بحسب تصور كل قصصى، وكلما استطاع القصصى أن يبتدع فى تصوره أسلوبا مستقلا اكسب الحقيقة لونا جديدا ورآها فى شكل خاص، وكشف منها عن نواح هامة وتمكن من تغذية الفكر العام والشعور العام بآراء وعواطف جديدة .

فلكل من الروائيين العظام أسلوب فى تصور الواقع يمتاز به ويؤثر عنه. فالروائى الروسى الكبير فيدور دستويفسكى يرى الأشياء والأشخاص من خلال الظلمة النيرة التى تسبح فيها الانفعالات فى ابعد اغوار النفس البشرية والروائى الفرنسى جوستاف فلوبير يرى الأشياء والأشخاص ساطعة الألوان واضحة المعارف دقيقة التفاصيل تعبر مظاهرها الانسانية العادية عن أعمق الاهواء والميول ومختلف أطياف الجمال .

وأناتول فرانس لا يعبأ بتحليل نفسيات أبطاله قدر اهتمامه بأفكارهم وشهواتهم وغرائزهم، وفى وسعنا أن نضرب الأمثلة الكثيرة تؤيد ما نذهب اليه

فالحقيقة المجردة اذن ، الحقيقة الشائعة المتواردة التى تلمسها العين العابرة المتعجلة لا قيمة لها من الوجهة الفنية، بل القيمة كل القيمة فى أسلوب تصور الكاتب لهذه الحقيقة ، فى نوع حقيقته هو ، وفى اشعارنا بأننا كنا غافلين عنها ، كنا نجهلها، وانها خلقت على يديه من جديد ، غنية بالجمال المتوارى، حافلة بالاسرار البعيدة التى كان اذ كانا عقلا ، وأوسعنا خبرة وأدقنا نظراً عاجزاً كل العجز عن ادراكها

وليس معنى التصور هو الخيال كلا فالخيال المعروف عندنا يبالغ فى رسم الواقع فيشوهه ، او يضيف اليه إضافات غريبة عنه فينكره .

واما التصور فيتمشى مع الحقيقة لتدعيمها . يقترن بها ويفنى فيها يصب

عليها أضواء حادة تميط اللثام عن جوانبها كلها .

وعليه فالفن القصصى الممتاز حقيقة طريفة تنبع من التصور القوى .

وصاحب التصور الشامل العميق هو القصصى الفذ ، أما الروائي الذى يأخذ بظاهر الأشياء ويهتم برسم الأخلاق والعادات والتقاليد رسما فوتوغرافيا محضا فرجل يخدعه ظاهر الحياة اليومية ، بل يخدعه نظام المجتمع نفسه ، اذ المجتمع بحكم قوانينه وأوضاعه يفرض علينا واجبات تحجب خصائص النفس البشرية عن الابصار .

فالفرد خاضع للمجتمع ولكنه حر حيال نفسه . وهناك من العواطف والميول ما يخفيه الفرد عن المجتمع كى يباشره سراً فى هدأة الوحدة وتحت جنح الظلام .

وهذه العواطف والميول أبلغ تعبيراً عن جوهر الطبيعة الانسانية من الأخلاق والعادات المتبعة بين الجميع .

على أن الأخلاق والعادات أوضاع نسبية محضة يطغى عليها سيل التطور فلا يلبث حتى يمحوها ويبدد آثارها .

وفى وسعنا أن نتخيل قصصياً مصرياً يهتم برسم عاداتنا وتقاليدنا فقط دون أن ينفذ الى اعماق الروح المصرية وما تشترك فيه مع الروح البشرية عامة فى كل أمة وفى كل عصر . ان فنه لابد أن يموت بموت العادات والتقاليد التى انصرف الى تدوينها

ان وثبة اصلاح واحدة تكفى لسن قوانين جديدة تهدم تلك العادات وتتجه بالنظام الاجتماعى نحو أساليب وأوضاع أخرى ، فيصبح القصصى فى حالة كهذه مؤرخا أو من حفظة الآثار ، أما فنانا كبيرا فلا .

ونظرة واحدة الى الأدب العالمى ومخلفاته الباقية تثبت لنا صحة ما تقدم

ان الأعمال الأدبية التى خلدت على مر السنين هى التى آثر أصحابها جوهر الحياة على عرضها الزائل ، هى التى تخاطب الاجيال جميعاً و تتوافر فيها حاجات الانسان المطلق مهما اختلفت البيئات و مهما تنوعت أنظمة المجتمع .

وانا لا أعجب بقصة (أوديب الملك) للروائى الاغريقى سوفوكليس لأنها تمثل لى العقلية الاغريقية فحسب بل لأنها تتناول « فكرة القدر » الابدية و تطرح المشكلة الانسانية برمتها على بساط البحث .

وكذلك قصة (عطيل) لشكسبير لاتسترعينى منها أخلاق أهل البندقية وعاداتهم قدر ماتؤثر فى أعراض الغيرة الفطرية التى يحللها القصصى فى عبقرية لاتبارى .

وأنا اذ أطالع قصة (الأب جوريو) لبلزاك لا آبه لما يرسمه لى الروائى من أخلاق الباريسيين وعاداتهم قدر ما اتتبع فى شوق ولهفة واعجاب حياة الأب جوريو وعظم التضحيات التى يمكن أن تقوم بها الأبوة كعاطفة انسانية خالدة .

وسوفوكليس وشاكسبير وبلزاك كانوا من أعمق القصصين تصورا ؛ لذلك لم تحفل مخيلاتهم بالظواهر فمزقوها و نفذوا الى باطن الأشياء فأخرجوها من مكامنها فلم يكونوا مؤرخين لعصرهم فقط . بل فنانين وعلماء أيضاً .

ونحن فى مصر والحركة القصصية فى مستهلها والقصصى المصرى حائر مضطرب لايدرى أى السبل يسلك ، ولا بأى المذاهب يقتدى أراه يمعن فى نقل أخلاقنا الشائعة ، وعاداتنا السطحية المتواردة ، ويغفل جوهر النفس الباقى على الزمن مابقى الانسان .

فواجبه أن يفصل بين الحقيقة الظاهرة ، وما وراء الحقيقة الظاهرة ، ثم يدمج الحقيقتين فى صورة واحدة ليستطيع أن يعبر عن أخلاق عصره وعاداته وعن نزعات القلب البشرى عامة فيتجه بالحركة القصصية نحو الفن الروائى الصحيح

القصة بين الايحاء والتحليل

— ٣ —

نقصد بهذا البحث دراسة الطريقتين الرئيسيتين اللتين كان لهما أكبر الأثر في انتاج أروع ما أخرجه العقل البشرى من قصص الى يومنا هذا

وهاتان الطريقتان هما : الايحاء والتحليل

فالقصصى الذى يقيم فنه على الايحاء يتناول أشخاصه من الظاهر فقط ، ويلقى بهم فى غمرة الحوادث ، ثم يأخذ فى رسم حركاتهم وسكناتهم وملامح وجوههم وضروب حوارهم بحسب ما يطرأ عليهم خلال حوادث القصة من تقلبات وأطوار . فحوادث القصة تتطور ، وكذلك مظاهر الأشخاص .

وما فن الروائى الايحائى إلا فى تحرى الدقة البالغة فى وصف هذه المظاهر اثناء سير القصة ، ومن هذه الدقة فى الوصف الخارجى ومن تراكم الصور والملاحظات الجثمانية ، ومن تنوع ضروب الحوار وارتباطها بتلك الملاحظات يوحى الينا القصصى بما يعتلج فى نفوس أشخاصه ويشعرنا به ويكشف لنا عن غوامضه ويرغمنا على الاشتراك معه فى استخلاص حقيقة الشخصية وجوهرها من مجموع تلك الملاحظات الموزعة هنا وهناك .

فالقصصى الايحائى يعرض مختلف ألوان الحياة و يفتن فى هذا العرض ، ثم يدع القارىء لنفسه يستنتج من ذلك العرض الصادق الأمين ماشاء .

وهذا الضرب من الفن يكسب القصة شيئا من الغموض الفاتن المحاط

بالأسرار . إذ يضطر القارىء إلى انعام النظر فى ملاحظات الروائى وربطها بعضها بالبعض الآخر والتنبه إلى علاقة كل منها بالآخر وعلاقتها جميعا بموضوع الرواية واتجاهها وتطورها كيما يحس مفعول الايحاء كاملا فى خياله وعقله ، وكيما يستجلى بواطن الشخصيات وينفذ ان استطاع إلى صميم فكرة الكاتب .

ومن القصصيين المولعين بهذا الاسلوب من يوحى اليك بدخائل نفوس أشخاصه بسهولة متى كانت القصة بسيطة والنفوس بسيطة ، شائعة العواطف عادية الاهواء . ومنهم من تلقى أشد الصعوبات فى ملاحقة مدى ملاحظاته والاحساس السريع بقوة إيحائه نظرا لغرابة ميول أشخاصه وتعقد عواطفهم وتضارب آرائهم ونزعاتهم . وعندئذ لا تجد مفراً من إعادة تلاوة قصته مرات للالمام بشتى الملاحظات الموزعة ، والتثبت من أثر كل منها فى الآخر . وارتباطها بالمجموع توصلا إلى معرفة الحقائق النفسية التى غابت عنك فى أول تلاوة

ومجرد اعتماد الروائى الايحائى على القارىء وعدم استفاضته فى الشرح واكتفائه بالاشارات الظاهرية كدليل على ما يقع فى الباطن هو نفسه ضرب من السحر بما أنه يفرض علينا حل عدة رموز قد لا يسع القصصى ذاته أن يحلها.

وهل الحياة فى الواقع إلا سلسلة رموز ؟ . .

انك لتمر بمختلف الحوادث والشخصيات فلا تبهرك منها غير تلك العلامات الظاهرة المختلطة التى ليس فى مقدورك ان تحكم على الناس الا بها

ومن ذا الذى فى وسعه أن ينفذ توا الى قرارة النفوس ؟ . .

كل ما فى مكنة الانسان فعله ان يستعين بما أوتى من فكر وذكاء للنظر

فيما وراء تلك العلامات ، تفهم السر البشرى الدفين عن طريقها وحدها .

وهذا هو عين ما يطلبه اليك القصصى الايحائى فى قصته.

وانه ليخيل الى ان من المحال على الفرد الساذج ان يفهم القصة الايحائية حق الفهم

وكما انه غير قادر على فهم الحياة كذلك فهم تلك القصة من اشق الامور عليه...

وكثيرا ما يكون الروائى الايحائى واسع الثقافة بعيد مرمى الفكر عميق الملاحظة مجدداً فى الاسلوب وفى المذهب الايحائى نفسه . وهذا من شأنه ان يضاعف علاماته ورموزه وأفكاره غرابة واتساعا وغموضا فكيف يتسنى والحالة هذه للفرد الساذج أن يفهمه ؟ ..

وتلك هى العلة فى ان بعض الاعمال القصصية الفذة يظل بعيدا عن متناول الجماهير ، ويظل مغمورا فى نظر الادباء حتى يفد الناقد الذكى فيبدد عنه السحب ويكشف للناس عما غمض منه ويلفت اليه انظار المستنيرين ويقنعهم فى النهاية بأنهم كانوا حيال عبقرى لم يحسنوا تقديره ، ولم يسعدهم الحظ بفهمه والانتفاع به

وقد يظن البعض ان القصصى الايحائى ليس من شأنه تحليل العواطف والاهواء وهذا صحيح من الوجهة النظرية فقط ، ولكن الحقيقة ان ملاحظاته الظاهرية يجب ان تكون من الدقة والغزارة والصدق والامانة والشمول بحيث تستوفى الشروط اللازمة لاشعارك بتلك العواطف والاهواء وما يلحقها من تطور وتقلب وتبدل ، وهذا هو التحليل بعينه يقوم به الروائى الايحائى الكبير على خير وجه ولكن بطريقة غير مباشرة ..

وأبلغ دليل على ذلك فيدوردستويفسكى القصصى الروسى الاشهر ومن كبار اصحاب طريقة الايحاء . فهو لا ينفك يرمز الى عواطف اشخاصه وميولهم بشتى الملاحظات ، فهل معنى هذا انه لا يحلل ، وان ملاحظاته لا تعطينا

صورا محللة كاملة لاشخاصه ؟ كلا . إذ كل ما فى الامر انه لا يحلل نفوس ابطاله جهرة ولا يسهب فى شرح عواملهم وان كان يرمى فى قصصه دائما إلى التحليل لا على لسانه هو بل على لسان أشخاصه وبواسطة الحوادث التى يقومون بها وعن طريق ملاحظاته لهم بدل الاستفاضة فى التحليل المباشر

إذن فدستويفسكى واقرانه يعرضون الحياة فى حركتها المطردة ويجتهدون فى وصف هذه الحركة وما يحفها ويتصل بها من متعدد الالوان كما تبدو لعين الملاحظ الدقيق دون أن يعترضوا سيرها بالتعليق والشرح

وهذه فضيلة عظيمة . إذ التحليل يبرز للفور شخصية الكاتب ، ويمزج بينها وبين شخصيات ابطاله فيشوش سيرها الطبيعى ، ويعكر مجراها العادى ويجرد القصة من عنصر الوهم الذى لابد من توفره لصب روح الحياة فيها .

وليس ثمة شك فى ان القصصى الذى يتحدث كثيرا ولا يفتأ يعلق ويشرح يحول بيننا وبين رؤية ابطاله على حقيقتهم بل يحل عقله محل عقولهم ولا يستطيع اقناعنا بانهم يعيشون بمطلق ارادتهم فى حين ان هذا هو الشرط الاول لكل قصة فنيه صالحة .

وقد نبغ فى الفن القصصى الايحائى معظم أدباء الروس كدستويفسكى وانطون تشيخوف وليون تولستوى ومكسيم جوركى وبعض الانجليز وعلى رأسهم جورج اليوت وديكنز .

اما الفرنسيون وهم امة المنطق والوضوح والتناسب فيميلون بطبيعة مزاجهم إلى التحليل وان كان جوستاف فلوبير وستندال وجى دى موباسان واميل زولا من ابرع القصصيين فى المذهب الايحائى واساتذة الروس فيه بالرغم من افتقار اعمال البعض منهم إلى وفرة تلك الملاحظات الدقيقة التى تنم عن الميول النفسانية المركبة المعقدة التى نحسها على الدوام

فى كل قصة روسية عظيمة .

والفن التحليلى هو نقيض الفن الايحائى . والقصصى التحليلى يهجم على العواطف مباشرة . ينتزعها من ظلمات النفوس ويبرزها ما استطاع إلى الخارج ، ويريق عليها ضوءا ساطعا من التحليل ، ويفتن فى شرحها وبحث اجزائها والتعليق عليها كأنما هو يمدد على المشرحة النفس البشرية بدل الجسم

والسر فى روعة هذا الفن — على ابتعاده عن رسم المحسوسات — انه يتحرك فى محيط النفس فحسب وان محيط النفس سرى ضبابى شعرى بطبيعته ، فلما ان يصب الكاتب عليه نور تحليله الوهاج تنبهر أنت وتأخذك هزة نشوة وإعجاب وفرح لاستطاعتك الوقوف على ماقد طالما حيرك وأمضك من ظلمات تلك الميول المدلهمة المتضاربة فى قرارة نفسك

وفى هذا بلا شك اشعار للقارىء بمعنى القدرة . قدرة الانسان على فهم نفسه ليتمكن من فهم الآخرين . ولهذا اعجب الفيلسوف الالمانى نيتشه بالأدب اللاتينى عامة والفن القصصى الفرنسى التحليلى خاصة

فكأن للفن التحليلى وجهة نفعية ترمى إلى تدريب الفرد على النظر فى ميوله نظرة عقل وفحص وادراك كيما يتسلط عليها ويسودها ويوجهها وجهة عملية نافعة ولايعود ينخدع بتقلباتها فى نفسه وفى نفوس الغير .

وبما أن غاية هذا الفن معرفة النفس لابد أن يتخذ له العقل سلاحا . والعقل هو الذى يغلب فى القصة التحليلية على ملكات الاستشعار والتخيل وتسجيل الملاحظات الظاهرية الموحية .

ومن خصائص العقل المنطق والتحليل والتقسيم والبناء والوضوح والتسلسل والنظام . وجميع هذه العناصر تتوافر فى القصة التحليلية الصالحة .

ولا ينبغى أن يغفل القارىء عما فى هذه العناصر من جمال إذ هى التى تجعل

من القصة شبه تمثال أغريقى بديع متسق الخطوط متناسب الأوضاع .

والواقع أن القصصى التحليلى يكتب متجه البصر نحو النفس والمجتمع معاً أو بمعنى أخر هو يحلل النفس ليخدم الفرد والمجتمع . بينا القصصى الايحائى لايحفل بغير تصوير الحياة كما يراها ثم يدع لقارئه فرصة التحليل والانتفاع .

ومعظم القصص التحليلية يتفادى واضعوها خلق شخصيات متعددة . ولايختارون لها غير واحد أو اثنين أو ثلاثة أبطال يمعنون فى دراستهم ويحاولون بواسطة الاسهاب فى تحليلهم أعطاء صور واضحة منهم قد لا يكون فى المستطاع استكمال مختلف مناحيها دراسة وتحليلا لو ان الشخصيات تعددت وتشابكت كما فى معظم القصص الايحائية.

ومن جهة أخرى فالقصة التحليلية لاتعنى برسم الشخصيات قدر ماتعنى برسم حالات نفسانية خاصة .

ومن البديهى أن وصف حالة نفسانية لايتطلب من الكاتب الاكثار من خلق الشخصيات .

وهذا الفن يتمثل فى قصة (البرنسيس دى كليف) لمدام لافاييت و (ادولف) لبنجامان كونستان و (دومنيك) لاوجين فرومانتان و (الشهوة) لسانت بوف و (التلميذ) لبول بورجيه . وفى طائفة أخرى من القصص الفرنسية العصرية التى يضعها كتاب ينهجون هذا المنهج الفرنسى التقليدى أمثال (جاك دى لا كريتيل) و (فرانسو مورياك) وغيرهما .

والذى نرغب فى الاشارة اليه أن جميع هذه القصص وان كانت تنحدر من ينبوع واحد إلا أن كلا منها يحمل طابع صاحبه المستقل .

بل إن هذا النوع التحليلى نفسه قد نما وازدهر وتجدد فى هذه السنوات

الأخيرة واستطاع — لارتكازه على العقل — ان يستمد حياة جديدة من محصول الثقافة العصرى ، وان يساير أحدث تطورات العلم الحديث والفلسفة الحديثة لاسيما فى قصص (مارسل بروست) التى نلمح من خلال أسلوبها الطريف وتحاليلها البعيدة الغور — الدائرة حول تصوير مايرسب فى ذاكرة الانسان من بقايا المؤثرات التى علقت بحواسه سالفاً والتى تخلق اليوم عواطفه وميوله — آثار تعاليم الفيلسوف (هنرى برجسون) فى نظرية التطور الخالق ومغنى الزمن والاهتداء بالبصيرة ، وآثار تجارب العلامة (فرويد) فى طبيعة الأحلام وأسرار العقل الباطن

ها نحن قد بسطنا للقارىء خلاصة المذهبين اللذين انتجا خير ماعرف من قصص حتى اليوم .

ونحن لانؤثر مذهبا على مذهب أو طريقة على طريقة إذ المسألة فى صميمها مسألة مزاج ، والفن جوهر لا يتجزأ مهما اختلفت الاشعاعات المنبعثة منه

وليست العبرة فى أن تكون قصصيا ايحائيا أو محللا بل العبرة كل العبرة فى أن تكون فنانا . صادق النظرة إلى الحياة ، قوى الشعور بها ، أمينا عليها ، قادراً على التعبير عنها ، نافذا إلى أعمق اعماقها ، ولك بعد ذلك أن تختار أى المذاهب والطرائق شئت .

ناجى الشاعر

***

فى مصر اليوم نهضة ادبيه جديدة يضطلع باعبائها جيل جديد . ولكن هذا الجيل مغبون ، فلا الصحف والمجلات قدرته حق قدره واخذت بيده وساعدته على ابراز مواهبه – كما هى الحال فى الغرب – ولا الناشرون أقبلوا عليه وشجعوه ومكنوه من اقتحام الجمهور ومخاطبته

وبرغم هذه العوامل المثبطة استطاع هذا الجيل ان يشق طريقه ويثبت شخصيته ويبدع من الاعمال الطريفة ماسوف ينضج ويبقى على مر الزمن

وفى وسعى أن أذكر اسماء طائفة من كتاب الشباب قامت بعدة محاولات ادبية تنم عن ثقافة واسعة ونزعة ابتكار اصيلة ورغبة فى التجديد صادقة ، ولكنى اكتفى اليوم بالتحدث عن احد افراد هذه الطائفة وهو الشاعر النابغ الدكتور ابراهيم ناجى على ان اعود فى فرصة اخرى فأفى مالسائر اخوانه على من واجب التقدير

***

للدكتور ابراهيم ناجى شخصية غريبة تستهوى كل من اتصل بها . شخصية شاعر قلق يحيط بها ويغمرها السر الذى قذف بها الى هذا العالم والذى لاتنفك تتساءل عنه وتتطلع إليه مبهوتة مما ترى حولها من الم وجمال ، شخصية خفيفة مجنحة لاتلبث ان ترف على الاشخاص والاشياء حتى تحلق فى اجواء

غير منظورة اسعد ما تكون بالصمت والتأمل والصفاء

تلتقى بالدكتور ناجى فتشعر كأن نسيما منعشا يهب عليك ، وتصافحه فكانما هو يفتح صدره لك ، وتجلس اليه وكأنك فى حضرة روح حائر ، وتستمع لحديثه فيأخذك العجب من طهارة قلبه وبراءة نفسه وسلامة طويته وعذوبة صوته وطلاقة محياه ، فتذهل ويتضائل شخصك فى عين نفسك ويعز عليك نقصك ولا يغريك فى النهاية الا يقينك بان الخير الذى غادرك استقر فى سواك وتمثل نابضا حيا فى قلب هذا الشاعر النبيل الشاب !

وتحدق اليه فترى رجلا هزيلا متوسط القامة منكمش الأعضاء اصلع مقدمة الراس ناعس العينين مديد الذقن أشبه بالصورة التى نعرفها للشاعر الايطالى دانونزيو ، يمشى وكأنه يتعثر ، يصمت وكأنه غير موجود ، يقبع فى ركن من القهوة وغليونه فى فمه وكأن سنة من النوم قد استغرقته . ثم يتكلم بغتة ويفيض ولا يفتأ يتحرك ويتلفت ويلوح بذراعيه تلويحا عصبيا متداركا فتحس لفورك رحابة نفسه واضطرابها وضيقها بما تحمل .

وتسمعه يجادل ويحتد وصوته ابدا صريح وجبينه ابدا منبسط والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفتيه ، وعينه الحالمة اصفى ماتكون محبة وعطفا فيخطر لك أن تداعبه بنكتة ظريفة ، وسرعان مايتبدل ويستضىء وجهه ويتألق وتشيع فيه نضارة معبودة كنضارة الأطفال ، فيأخذ فى ارسال النكتة تلو النكتة حاضر البديهة عبقرى الفكاهه جم الحيوية يضحك ضحكات حرة عريضة كانما الفرح كله قد اجتمع فى فؤاده ، وكأنه قد نسى فى لحظة واحدة كل مااستشرفت عليه نفسه من هم الحياة !

والذى يسحرك فى ناجى انك عبثا تحاول توجيه أى نقد خلقى اليه ، فهو يحب الجميع ويخلص للجميع ويخدم الجميع ، ولا يداهن ولا يغتاب ولا يشى ولا يتكبر . ولولا بعض الحياء فى الطبع اكسبه إياه فرط الأدب وراضه

على التجاوز والصفح فى حيث لايجب التجاوز والصفح لما وجدت أى مغمز فيه ، ولقلت انه جاوز المنطقة المقدسة التى تفصل بين الكمال الانسانى المحدود والكمال العلوى اللانهائى !

هذه شخصية ناجى كما عرفتها وآمنت بها وكما يقررها ويجمع عليها اخوانه وعارفوه .

« شعره »

والشعر الذى ينظمه ناجى يحمل طابع شخصيته . فهو شعر خفيف سهل بسيط لازخرف فيه ولا اعنات يفهمه الكل وينفذ الى القلب تواً كمختلف ألوان الجمال الواضحة الملازمة لحياة الناس

وبرغم هذه البساطة الساحرة فشعر ناجى عميق وجديد . عميق لأن فيه فلسفة أساسها التأمل والألم . وجديد لأن فيه تحليلا عاطفيا أساسه الملاحظة الدقيقة المستمدة من عقل ناضج مثقف .

ومما يمتاز به ناجى انه يشعر بالحياة شعوراً قويا ، ومن شعره القوى هذا تتفجر نظراته الفلسفية الموزعة فى شتى قصائده .

وهو لايفكر أولا ثم يحس . بل يحس بجميع حواسه واعصابه ثم يرسم ويحلل ويتغنى ومن خلال اغانيه تلمح فكره كعنصر مكمل لعاطفته منطلق من صميم وجدانه .

واذن فعاطفته لاتنحدر من فكره كمعظم شعراء هذا العصر المثقفين ، بل هو فكره الذى ينبع من عاطفته ، لانه شاعر قبل كل شىء ، بالعاطفة يعيش ، ومن العاطفة يستلهم ، وفى سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب فى مناكب القاهرة ليلا ويغشى انديتها وملاهيها ويفرح ويهلل ويضحك ويبكى :

وأقرب الاحساسات الى نفسه وأشدها سيطرة عليه بحكم مزاجه كل ماكان منها رقيقها تشيع فيه المحبة والعطف والشفقة والطيبة والحنين والألم الملح الدفين الذى يمزق صدر صاحبه فى بطء وتأمل وصمت

هذه الرقة المقترنة بالشكاية المرة وهذه البراءة المقترنة بالحلم العميق ، هى صفوة الروح المصرية وهى التى تنعكس على شعر الشاعر وتتمثل فى شخصته وفى حياته اليومية سواء اخلا الى نفسه أم اتصل بالناس ؟.

والحقيقة أن شدة احساس ناجى بالعواطف الرقيقة هى التى تضاعف شعوره بالالم عند مايعترض طريقه مشهد مؤثر أو فاجعة رهيبة ، أومجرد سماع انسان يشكو أو آخر يستجدى أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفى عينيه أثر مجاهدة الدموع !..

وهذا هو السر فى تشاؤم ناجى وفى أزمات التمرد والسخط التى تنتابه ، وفى تلك الألوان القاتمة السوداء التى تبصرها فى بعض شعره .

فاحساسه الرقيق ينفعل بسهولة وقوة فينمو المه ويزداد تبرمه وتتدفق منه صرخات الاستنكار والثورة ولكن عقله يكبحها فى النهاية ويرى فيها رمز القدر فاسمع له يقول :

تمر ذكرى وراء ذكرى وكل ذكرى لها دموع
وتعبر المشجيات تترى من كل واد بلا رجوع

***

قد صار حب الحياة منا يقنع بالجيفة السباع
وعلم السمح ان يضنا وثبت الجبن فى الطباع

***

مللت من هاته العوالم مهزلة الموت والحياه

وصورة القيد فى المعاصم ووصمة الذل فى الجباه

* * *

بعينها كذبة الدموع بعينها ضحكة الخداع

ومنحنى هاته الضلوع على صواد بها جياع !

ومما يدل على بساطة ناجى وصدقه وقوة اندماجه فى المرئيات وسرعة احساسه بما يكتنفه وطواعية الوحى الشعرى له انه لايحتاج — كى يرى ويشعر بالحياة الكبرى — الى الاعتكاف فى داره والاكباب على مطالعاته والانطلاق فى تأملات فلسفية تجريدية ، وانما يكفيه أن يجلس على مقعد فى قهوة ويسرح أبصاره فى السابلة ، ويحلم وهو يقظان كى تمر الحياة بأسرها أمامه ؛ فكرة وحركة ، جهاداً ونصباً ، موتاً وبعثاً ، فيتغنى بها ويستعرضها فى مثل هذه الأبيات :

جلست يوما حين حل المساء وقد مضى يومى بلا مؤنس

اريح أقداما وهت من عياء وأرقب العالم من مجلسى

* * *

سيان ما أجهل أو أعلم من غامض الليل ولغز النهار

سيستمر المسرح الأعظم رواية طالت وأين الستار ؟ .

* * *

أغمضت عينى دونها خائفا مبتغيا لى رحمة فى الظلام

نصاح بى صائحها هاتفا كأنما يوقظنى من منام

* * *

أنت أمرؤ ترزخ تحت الضنا لم يبق منك الدهر الا عناد

وكل ما تلمحه من سنا يهزأ بالجذوة خلف الرماد ! ..

وبعد أن يصف كل مارأى فى فورة ازدحام الحركة المتجاوبة الاصداء

فى الشارع يهرع الى الله ويستصرخه ويتوق الى التسليم والصفاء فيقول :

وفى سبيل الزاد والمأكل   نملأ صدر الأرض أعوالا
كم يسخر النجم بنا من عل   وكم يرانا الله أطفالا

***

يارب غفرانك انا صغار   ندب فى الأرض دبيب الغرور
نسحب فى الدنيا ذيول الصغار   والشيب تأديب لنا والقبور

ولكن الغريب فى ناجى أن التشاؤم عنده دليل القوى لادليل الضعف ورمز الشجاعة لاعنوان اليأس . واذا كان يرى الحياة فى بعض الاحايين سوداء فذلك لأنه يعرفها حق المعرفة . وهو لم يعرفها الا لانه أقبل عليها وخالطها وأحبها بروح شاب قديقول له العقل ان الحياة مظلمة شقية ، ولكن قوة الشباب ماتنفك تغريه بها و تدفعه اليها و تشعره بما فيها من فتنة ومرح وجمال

فشعره يعبر عن تلك الظاهرة التى نصادفها عهد معظم الحساسين من الشبان اى اقتران التشاؤم بالتفاؤل فى وقت واحد وحب الموت والحياة فى آن واحد ودقة الشعور بالفناء لفرط الاحساس بالبقاء

والشاب ان هو استطرف خيال الموت فذلك لانه مفعم بالحياة . وان هو استعذب الالم فذلك لانه يصبو الى الفرح وماحبه الاسى والحيرة والعذاب الارد فعل شبابه القوى وحيويته المتدفقة . وهكذا ناجى فبينا تراه متبرما بكل شىء إذ به يمجد كل شىء . فتارة يقول :

ان الكواكب ضقن بى   ذرعا وآسيها سئم
ومن العجائب فى زمانك   والحوادث تستجم
شكوى الحيارى فى الحياة   إلى حيارى فى السدم !

وأخرى :

كأن صدر الظلام ضاق   من كثرة البث كل حين

ياويحه كيف قد اطاق شكوى البرايا على السنين

***

كأنما ينفث الشهب تخفيف كرب يئن منه
كالقلب ان ضاق واكتأب تخفف الذكريات عنه

***

ما بالها أعين الفلك منتثرات على الفضاء
تطل من قاتم الحلك بغير فهم ولا ذكاء ؟ ..

ولكنه وقد ضاق ذرعا بالتقاليد ونضاعنه توب التشاؤم وخرج يلهو ويمرح كبقية الشباب تسمعه يصرخ قائلا وهو يصف رواد صالة رقص امها ذات مساء :

فقدوا حجاهم حينما طربوا ودووا دوى البحر صخابا
فاذا استقروا لحظة صخبوا لايملكون النفس إعجابا

***

لم لا أثور كمثل ثورتهم لم لا اجرب مايحبونا
لم لاأصيح كمثل صيحتهم لم لا أضج كما يضجونا ؟

***

لم لاتذوق كؤوسهم شفتى ان الحجى سمى وتدميرى
فى ذمة الشيطان فلسفى ورزانتى ووقار تفكيرى !

***

ياقلب ضقت وهاهنا سعة ومجال مختبل باغلال
اتقول اعمار مضيعة ماذاصنعت بعمرك الغالى ؟

***

انظر تر السيقان عارية وترى الخصورضوامراتغرى

وترى عيون اللهو جارية فهنا الحياة وانت لا تدرى !

أليس هذا هو الشاعر الذى يغلب عشق الحياة فى نفسه على كل عشق ، والذى يسعى الى الحياة ويعتنقها ويتفاءل بها ويشربها روحه ويعلمنا كيف نتشجع ونغامر ونتألم ونختبر ؟

والذى يكسب نظرة ناجى الى الحياة دقة وعمقا ليست هى فقط غريزته الشعرية المتوقدة بل ثقافته الواسعة أيضا . فهو بحكم مهنته رجل علم يطالع أحدث الآراء والنظريات العلمية وبحكم ميله الى الشعر التجديدى رجل أدب عالمى يطالع الشعر العربى والأجنبى ويقرأ أحسن القصص الأوربية والأمريكية ويقرأ فى الفلسفة والاجتماع أيضا ويود أن يوفق بين شعره وبين ما اهتدى اليه من أوجه التجديد عند الغربيين . فتراه ينزع الى الشعر القصصى حيث مجال الوصف والتأمل والتحليل فسيح فيضع قصيدة (قلب راقصة) وهى حكاية الشاعر إذ يلتقى فى إحدى الصالات ذات ليلة براقصة مسكينة فلا يكاد يتحدث اليها حتى يفهمها ويعطف عليها ويوشك أن يحبها ويفضى به العطف الى الرحمة والرحمة الى الشعور بكل ما فى حياتها من عوامل البؤس التى تجمع بينها وبين الشاعر فى محيط الألم المطهر ! فيقول :

هاتى حديث السقم والوصب وصفى حقارة هذه الدنيا

***

انى رأيت أساك عن كثب ولمست كربك نابضا حيا

***

لا تكتمى فى الصدر أسرارا وتحدثى كيف الأسى شاء
أنا لا أرى اثما ولا عارا لكن أرى امرأة وبأساء !

***

عجبا لنا ! فى لحظة صرنا   متفاهمين بغير ما أمد
يامن لقيتك أمس ! هل كنا   روحين ممتزجين فى الأبد ؟ ..

* * *

ويلاحظ فى ناجى فوق ما تقدم أن التثقف حرره من الثقافة . وان المعرفة الصحيحة ردته الى أصله بدل ان تستعبده لسواه فهو عند مايعتزم قرض الشعر ينفض عن فكره عبء ثقافته وينسى أو يتناسى كل ماطالعه ويسلم احساسه الى سجيته فلا تلمح غير شخصيته وغير وحيه يبتكر ويجدد حراً طليقا خالصا من شوائب المحاكاة .

وأوضح ما تبدو هذه الظاهرة فى شعره الغزلى والسبب فيها ان الشاعر عاش واختبر وأحب وتألم وان قلبه أغزر مادة من عقله وروحه أينع ثمراً من فكره وانه من ذلك القلب وتلك الروح يستخرج مولدات خياله دون ماحاجة الى استلهام الغير أو التأثر بهم

ولذلك هو يسترسل ويتدفق وينظم الشعر كما يتكلم ويعبر بشعره عما يحس ولا يسع قارئه إلا ان يؤمن بصدق احساسه وصدق حبه لفرط ما فى شعره من بساطة الالهام اليومى ودقة الملاحظة المباشرة التى تقنع على الفور بحقيقة العاطفة وتمكنها .

وهذا مثل من شعره الغزلى يصف حال عاشقين :

هل رأى الحب سكارى مثلنا   كم بنينا من خيال حولنا
فمشينا فى طريق مقمر   تثب الفرحة فيه قبلنا
وتطلعنا الى انجمه   فتهاوين واصبحن لنا !
وضحكنا ضحك طفلين معا   وعدونا فسبقنا ظلنا !

إن الملاحظة هنا مستقرة فى الشطر الثانى من البيت الثانى وهى التى تشعر

القارىء بأن الحب صحيح وان العاطفة ملتهبة أما الشطر الأخير ففيه من احساس المحب بالتفوق على الحياة وامتلاكها ما يبعث فى القلب نشوة قرير ة ساحرة .

وعند ما يرهق الألم الشاعر ويبرح به يلتمس الفناء فى الحب كما التمس فيه البقاء فينشد :

ياحبيب القلب ياروح الأمانى لست تدرى عطش الروح اليكا
وحنينى فى أنين غـــير فانى للردى ! أشربه من مقلتيكا !

ان فى هذين البيتين من التوق العميق الى الموت ما يشعر بأن الحب هنا ليس ملهبا فقط بل عاصفا جارفا رهيبا له قوة الموت التى فى وسعها وحدها انقاذ الشاعر من الحب لأنها عاصفة أيضا وجارفة ورهيبة فيها نفس قوى العدم والخلاص والخلود المشتمل عليها الحب

وعند ما يذكر شبابه المتصوح وغرامه الأول ينشد :

ذهب الصبا الغالى وزالت دوحة مدت لنا ظل الوفاء ظليلا
أيام يخـــذلنى أمامك منطق فاذا سكت فكل شىء قيلا !
ويثور بى حبى فان لفظ جرى بفمى تعثر بالشفاه خجولا !

***

وهذا البيت أيضا :

ياحنانا كيد الآسى الرؤوم وشعاعا يشتهى بعد الغيوم !

***

وهذه الأبيات :

هات أسعدنى ودعنى أسعدك قد دنا بعد التنائى موردك
فاذقنيه فإنى ذاهب لاغدى يرجى ولا يرجى غدك
وابلائى من ليالى التى قربت حينى وراحت تبعدك !

***

وعندما يقصد الشاعر البيت الذى شاهد فيه حبه وسعادته ويراه وقد استحال الى اطلال يصعد من الزفرات والنغمات مايظل يترافع من الحنين الممزق الى الشكاية المستسلمة الى اليأس الممض حتى يبلغ حد الهوس والخبال ثم يفتر ويتراخى ويغيب شيئاً فشيئاً فى لجة الابد . وكل ذلك فى قصيدة منسجمة الألوان متماسكة الأوضاع ذات وحدة فى الفكر والتصور هى قصيدة (العودة) التى أراها حتى الآن خير قصائده وإليك بعض أبياتها :

رفرف القلب بجنبى كالذبيح وأنا أهتف ياقلب اتئد
فيجيب الدمع والماضى الجريح لم عدنا ؟ ليت أنا لم نعد
لم عدنا أو لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم ؟
أيها الوكر اذا طار الأليف لايرى الآخر معنى للسماء
ويرى الأيام صفرا كالخريف نائحات كرياح الصحراء ؟

وهنا يقلب الشاعر طرفه فى أنحاء الدار المتداعية ويقول :

والبلى ! أبصرته رأى العيان ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! ياويحك تبدو فى مكان كل شىء فيه حى لايموت
كل شىء من سرور وحزن والليالى من بهيج وشجى
وأنا أسمع أقدام الزمن وخطى الوحدة فوق الدرج ! ..

هذه الوحدة التى يحسها الشاعر تمشى وهذا الزمن الذى يسمع وقع أقدامه وهذا البلى الذى تنسج يده العنكبوت الاتعبر جميع هذه الصور بتلاؤمها وانسجامها وألوانها الصارخة المخبولة عن روح الدار المتقوضة واحساس الشاعر تجاهها ؟

لقد حرك الوحدة وأيقظ الزمن ونفخ الحياة فى الاطلال نفسها وبعد أن استبطن الماضى وأحياه وتملى منه ودع الدار بهذين البيتين :

وطنى أنت ولـكنى طريد   أبدى النفى فى عالم بؤسى
فاذا عدت فللنجوى أعود   ثم أمضى بعدما أفرغ كأسى!

هذا الختام الفاجع فى سكونه المهيب ومرارته المكبوحة وتسليمه التام ينحدر كالنغم النهائى الخافت الجليل الذى تلتقى عنده وتنتهى اليه وتتجلى فيه مختلف الحان سمفونيا رائعة !

***

ليس ثمة شك فى أن نزعة التجديد شائعة فى الأبيات السالفة ولـكنها نزعة تتناول جوهر القصيد لا شكله واطاره ، إذ الشاعر مايزال مقيداً بالوضع العربى والاوزان الشعرية العربية وكنا نحب أن نراه ثائراً على هذه الأوزان محطما ذلك الشكل التقليدى مبتكراً وضعا موسيقياً جديداً يتفق وما فى شعره من إحساس جديد . وفى مقدور شاعر كناجى أن يأخذ بما يسمونه فى الغرب الشعر المرسل أو الشعر الحر الذى لا يتقيد بالقافية ولا بطريقة النظم الـكلاسيكية المصطلح عليها .

ونحن نسلم ان التجديد فى الجوهر أهم شىء ولـكن التجديد فى العرض والشكل لابد منه إذ هو يمنح الشاعر قسطاً كبيراً من حرية الخيال والتعبير ويساعده على انماء جميع مواهبه ومضاعفة ذلك الجوهر قوة واتساعاً وانسانية

هذه دراسة سريعة فى شعر الدكتور ابراهيم ناجى .

وكل ما ابتغيته منها أن أقر بفضل الجيل الجديد وأحفزه لمواصلة العمل والانتاج والفت نظر الأدباء والمتأدبين الى أن بين شعراء هذا الجيل شاعر نابغ ، فى شعره بساطة وصدق وتجديد

ولعلى أكون بهذه الـكلمة قد قمت بواجبى نحوه وأفسحت لغيرى مجال دراسته كى نرى فى يوم قريب عبقرية شبابنا الظامئة وقد أنزلنا عليها ماء المحبة والعطف والتقدير تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج !

من جهود أدباء الشباب :

« ابراهيم المصرى »

يصدر قصته المصرية الكبيرة

« نهر الحياة »

وهى قصة من نوع جديد فى الأدب العربى تتناول بالرسم الدقيق والتحليل الصادق مختلف التطورات التى مرت بها شخصية مصرية فى المحيط المصرى .

وتقع فى أربعة أجزاء كبيرة كل جزء فى أربعمائة صفحة :ــ

الجزء الأول ــ **الحداثة** .

الجزء الثانى ــ **المراهقة** .

الجزء الثالث والرابع ــ **الشباب** .

يظهر الجزء الأول فى مستهل شهر نوفمبر من العام القادم

فانتظروه

سلسلة مطبوعات مكتبة سابا ومطبعتها

ص	الكتاب	المؤلف
	الأدبية	
٥	الفكر والعالم	للأستاذ ابراهيم المصرى
١٠	التربية والأخلاق	للأستاذ يعقوب فام
٤	ثمرات الوجدان	للأستاذ محمد طه محمود
	ثمرات القلم	« « « « « سيظهر قريباً »
	الزراعية	
٢٥	الزراعة المصرية جزءآن	للمهندس ملك عبده الهورى
١٠	الجداول الحسابية	« « « «
٨	تربية الأرانب	« « « «
	الطبية	
١٠	أسرار الطب القديم	للأستاذ ملك عبده الهورى
٣	تدبير الصحة	« عبد الغنى جعفر
	الروائية	
٤	الدرزية الحسناء	من قصص الرحالة الشرقية
٤	فتاة غاندى	« « «

وللكتب المدرسية وغيرها قائمة خاصة